رجـــل وامـــرأة

قصص

د. محمد عبد الحليم غنيم



مُعاصرة

المراسلات : ١٣ ش مدرسة التجارة — ديرب نجم — شرقية
مجدى محمود جعفر ٣٧٦٧٩٨٦ / ٠٥٥

الإهداء

إلى عبد الله بن المقفع ..

د. محمد عبد الحليم غنيم

عسرانة

عاد إبراهيم الفقي إلى المنزل آخر النهار وقد هده التعب ، أي منزل ؟! غرفة وحيدة تطل على فناء خال إلا من طلمبة مياه زعراء الذيل ، لقد كسر الأولاد يدها من زمن ، فبقيت على حالها ، فسموها " الزعراء" وشجرة توت لا تثمر ، ألقى نظرة على الغرفة فلم يلق سوى الصمت ، أدرك أن الأولاد ذهبوا إلى أمهم "عسرانة" في دار أبيها ـ رحمة الله عليه ـ وكان قد حذرهم في الصباح من الذهاب إليها ، فلابد له من أن يذلها بالأولاد ، فتحرم من رؤيتهم ، ومع

ذلك شعر في أعماق ذاته بالراحة لعصيانهم أمره ، ماذا يقدم لهم لو طلبوا طعاما أو شرابا ؟ ها هو يعود كما خرج ، ألقى بالفأس والمقطف إلى الأرض واتجه إلى "مشنة" الخبز ، فعثر بالكاد على لقيمات صغيرة مقددة تفوح منها رائحة عفن ، أخذها في كفه الكبيرة وغسلها بالماء فلانت قليلا وصارت مقبولة ، أخذ يأكل وهو يردد بينه وبين نفسه دون صوت وكأنه يخشى أن يسمعه أحد : " كده يا عسرانة تهون عليك العشرة " لم تكن المرة الأولى التي تغيب فيها عسرانة عن المنزل غاضبة إلى بيت أبيها ، يوم والثاني وترجع وكأن شيئا لم يكن لكن الغيبة طالت هذه المرة يا عسرانة .

لم يتحمل إبراهيم الجلوس وحده في المنزل ، وكان الليل قد دخل، وليل القرية ثقيل مثل الهم يكاد يكتم الأنفاس ، صفق الباب خلفه وخرج ، مر بدكان الحاج صالح أخذ منه سيجارتين ، لا تنظر لي هكذا يا حاج صالح أعرف أن الحساب ثقل ، أشعل واحدة واحتفظ بالثانية لوقت آخر ، كان بعض الرجال قد عادوا من صلاة المغرب فجلس بينهم على المصطبة وهو ينفث دخان سيجارته في عنف وضيق معا ، لم يلق السلام ، وربما ألقاه ولكنه لم يسمع ردا ولا يعنيه أن يسمع ، إنه يفكر في عسرانة "جمل إبراهيم الفقي" كما يقول أهل القرية ، أرسل لها أكثر من رسالة وأكثر من مرسال من

أهل الخير ، ولكن كل هذا دون جدوى ، تقول أنها لم تعد تطيق العيشة ، له أكثر من شهر لا يعمل وهي والأولاد لا يجدون ما يأكلونه ، وما ذنبي يا عسرانة إذا كانت هذه الأيام أياما سوداء لا زرع ولا قلع ، بكرة تفرج يا بنت الناس ، لكن والله عندها حق ، انتبه الحاج السعدني لصوت إبراهيم ، فقال :

ـ من هذه التي عندها حق يا إبراهيم . . عسرانة ؟

نظر إبراهيم إلى الحاج وعيناه تكادان تشرقان بالدمع ، فأشفق عليه الرجل ، وقال :

ـ لا تحمل هما يا إبراهيم ، سأذهب الليلة مع الحاج صالح إلى عسرانة ونردها إليك . . عليك كل ما عليك ألا تنطق بكلمة واحدة .

ابتسم إبراهيم في حياد ، فهو لم يعد يحتمل فراق عسرانة ولكنه في الوقت نفسه يائس من عودتها ، هز رأسه في استسلام وهو يقول بصوت مخنوق :

ـ البركة فيكما .. اعفني .. لن آتي معكما

أطرق الحاج السعدني ، ثم قال وكأنه استراح لقرار إبراهيم :

ـ أفضل

غادر إبراهيم المكان مبكرا عائدا إلى المنزل ، كان يدرك أن عسرانة عنيدة وراكبة رأسها ، وأنها لن تأتي مع الحاج السعدني أو

غيره،لقد أرسل لها من هم أعظم من الحاج السعدني والحاج صالح ، تصر أمها العجوز على الطلاق ، رفضت عسرانة الكثير من شباب القرية الذين تقدموا إليها ، وعندما تقدم إبراهيم الفقي الأجير الذي لا يملك سهما واحدا من الأرض قبلته ، عجب الناس ، ولكنهم في النهاية رضوا وقالوا كل فولة ولها كيال ، ليس لعسرانة " الجمل" غير هذا " الفحل " ، قالت لأمها : وحيد يا أمه ، لا أب ولا أم ، وأذعنت العجوز لرغبتها .

دفع إبراهيم الباب بقدمه ورمى بجسده على الفراش ، ولم يستيقظ إلا على أشعة الشمس الحارقة تلسع عينيه فتحها بصعوبة وقام ، اغتسل وصلى الصبح قضاء ، ثم خرج من البيت بلا هدف ، رفضت عسرانة أن تعود مع الرجلين كما توقع،كله من العجوز الشمطاء ، أين ذهب كلامها أنت زوج ابنتي وأخوها ، ليس لنا في البلد غيرك، لو تموت هذه العجوز ؟ لم يكن إبراهيم شريرا ، إنه لا يفكر إلا في عودة عسرانة ، فجأة وجد نفسه وجها لوجه أمام عسرانة ،يفصل بينهما طست غسيل ، كانت جالسة فجلس أمامها،ثم قال :

ـ صباح الخير ياعسرانة

فلم ترد ، و رمت بنظرها بعيدا

ـ كده ياعسرانة ..تهون عليك العشرة

فلم ترد أيضا ،ورمت بنظرها بعيدا ولكن بين آن وآخر كانت تنظر إلى شئ محدد لم ينتبه إليه إبراهيم عندما جلس ، فلم يكن يدرى أن أعضاءه الداخلية نهبا مشاعا لنظر عسرانة الحاد المراوغ ، فأخذ يردد من جديد :

ـ كده يا عسرانة ..تهون عليك العشرة

شردت عسرانة هذه المرة ، ثم كادت تفلت منها ضحكة ، ولكنها ابتسمت في حياء وهى تقول لإبراهيم الذي فوجئ:

–خذ الأولاد واسبقني على الدار يا إبراهيم ، أخلص الغسيل وآجى وراكم ..

ثم بعد تردد ، وكأنها تصحح خطأ :

– ولا أقول لك ..سيب الأولاد يكملوا لعبهم

وفى الطريق إلى المنزل كان إبراهيم يسير في الأمام وخلفه بدت عسرانة كحيوان شارد ، ولكنه بالتأكيد ليس الجمل ، وعندما وصلا دكان الحاج صالح رفع إبراهيم صوته بالسلام ،فكادت عسرانة تتعثر به ، أما الحاج صالح فقد ضرب كفا بكف وأخذ يقهقه عاليا وسط دهشة الزبائن .

أين أنت يا أبا نواس ؟

رائحة العرق يفحها الجسم بتؤدة وصمت ، رائحة أعرفها ، تشبه رائحة الجنود المتوحدين في الصحراء ، تذكرني بأيام الجندية والقوة والفحولة الجنسية والآن وأنا أسير في شوارع المدينة النظيفة ، تواجهني الفتيات بجمالهن الصارخ ، أذرع بضة ووجوه ملونة وشعر لا أعرف لونه ، أما الرجال فألامس في أيديهم رائحة الترف وكثرة النقود ، فأقول لنفسي ، كان لابد أن أستحم بماء الورد لأزيل هذه الرائحة .

غسلت وجهي وفمي بالماء البارد وشربت أيضاً قبل أن أدخل إليه، هل وصلت في الموعد ؟ قال : أهلاً ، وأعطاني أصابعه البضة ، فأمسكت بها برفق غير أني تركتها على الفور ، لا أعرف أياً منا

سحب يده أولاً ، جلست فوق مقعد بجواره ، وطلب هو شايا ، دون أن يسألني رأيي ، يمر الوقت طويلاً مثل قطار قديم ، وأخيرا يصل الشاي فوق يد رجل عجوز تخطى الستين ،وضعه في صمت ومضى . نظرت إلى مضيفي ،ولكنه كان مشغولاً عنى ، أردت أن أقول شيئاً ، أي شيء ، تشاغلت بتصفح وجوه الجالسين في الحجرة الواسعة ، لم يبادلني أحد الابتسام ، هل ابتسمت لأحد ؟ ربما أكون فعلت ، فجأة التفت إليَّ قائلاً :

– لا تقلق سنقوم حالاً ، سأعطى المقال للمطبعة ونسير.

أخيراً غادرنا المبنى الكبير ، نحن الآن في الشارع ، أسير بجواره وها نحن أمام عربة فخمة. ركبت بجواره واخترقنا شوارع المدينة ، ثم بدأ يتكلم ويتكلم ، فقط من آن لآخر كنت أعلق بكلمات قليلة ، لم أكن منتبها كلية له ، كانت ما تزال تؤرقني مشاكلي الوجودية الخاصة : هل سأظل كما أنا تفوح منى رائحة العرق وتؤلمني أسناني؟ وما جدوى الكتابة ؟ وأنت يا أبا نواس هل تشعر بآلامي الآن وأنا أبحث عنك ، وفيك ؟ كان لابد أن يستمر في الكلام ، وكان لابد أن يعلق أيضاً : فهمت ! فأقول نعم ولكن يا صديقي كيف تتكون العربات الفخمة؟ وما المنهج العلمي الذي يجب أن يستخدمه المرء ليحصل على واحدة منها ؟ وكان لابد أن أنزل أيضاً لأقف أمام

سور هذه العمارة الأفخم .

قادتني خطاه ، وفجأة التفت إلى وقال :

– ألم تأت معي إلى هنا من قبل ؟

– نعم

ثم ضحك ، هل كان الباب مفتوحاً ؟ وهل سرنا فوق السلم ؟ أم نزل السلم لنا ؟ قميص قصير يغطى نصف ركبتيها بالكاد ، أطرافها سمراء سمرة صافية ، عيناها السمراوان مريحتان ، استقبلتني بابتسامة ترحيب ، أزالت عن وجهي لفحة الخجل ، قلت في نفسي ابنته هذه الجميلة ، أما هو فقال لها وهو يشير نحوي :

– سيجلس خمساً وعشرين دقيقة فقط ، في الصالة ، لن يقلقك .

علقت ضاحكاً ، مستعيداً نصف ثقتي وأنا أرى هذا النعيم :

- لا .. أمامي كثير .

هل ضحكت هي الأخرى ؟ لا أعرف ، بيد أنها جلست في مقعد كبير ، على مقربة منى وجلست أنا بجوار النافذة فوق مقعد هزاز ، تصورت في البدء أنه سيكون مريحاً ، آه مازلت أشعر بآلام في ظهري ، وبدأت في تصفح الرسالة العلمية ، التي كنت أنتظرها في شوق ، وكأنه كان يقرأ ما في داخلي ، قال :

– كنت حاتموت عليها ، ما رأيك ؟عادية

رفعت صوتي في اضطراب ومجاملة معاً!

– هذا ما يسمونه الشغل الأكاديمي السمج .

لم يعلق ،كان قد ابتعد عنى ، لكن من تلك التي تذهب وتروح من أمامي ؟ أيهما زوجته؟أخيراً أدركت ، لقد فتحت لنا الزوجة أما تلك ذات الظهر الأبيض ، هاهي تمر أمامي للمرة الثالثة ولم ألمح إلا ظهرها ،و هذا مضيفي في الحجرة المجاورة ينادى :

– تليفون علشانك يا ....

وقبل أن أرد ، جاء لحم يرتج في جلباب قصير أشبه بقميص نوم خفيف ، كان الفتى يمر بجواري ، وجه أحمر سمين ، يختلط فيه الزغب بشعر لحيته القصير ، رفع السماعة وحمل التليفون وجلس في مقعد غير بعيد ، من دون أن يلتفت إليَّ ، وأخذ يرد على المكالمة ،قلت لنفسي ، عليك أن تنجز عملك . وسمعت مضيفي في الحجرة المجاورة ولأول مرة لمحته عندما تلفت حولي بحرية ، لقد كان يجلس خلف مكتبه المليء بالأوراق ، التقت أعيننا لأول مرة:

– هل تحتاج إلى ورق ؟

ولم أكن في حاجة إلى ورق ، كانت معي بطاقات بحوث كرتونية،ولكنى صرت موزع الذهن بين تأمل الكتاب وتأمل ما حولي، هاهي الفتاة مرة أخرى ، إنها ترتدى قميصاً أخضر فاتحاً ،

أما شعرها فقد كان يميل إلى الخضرة أيضاً ، بل أن جسدها المكشوف من خلال فتحتي الظهر والصدر يبدو بياضه مائلاً للخضرة، ولم أر لون عينيها ، وأرجح أن لونهما أخضر، وأخيراً جاء الشاي ، أتت به السمراء ووضعته أمامي في صمت ولم أستطع أن أنظر في عينيها ، لكنى رأيت في جانب وجهها عندما استدارت لتتركني طبقة كثيفة من اللون الأحمر ، أكد سمرة بشرتها ، وأشعرني بانقباض .

هل كنت أشعر بالقلق ؟ لا أعتقد ، إنه ظهري الذي يؤلمني ! المقعد غير مريح . هل أستطع أن أنفصل عن هذا المكان ؟ جاء مضيفي وجلس خلف المنضدة ، فصار في مواجهتي تماماً ، قال:

– إزى الحال ... هل أعجبتك؟

ثم أخذ يقلب البطاقات التي نقلتها من الرسالة ، وكنت قد انتهيت منها تقريباً، وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية ظهراً ، هل كنت أشعر بالجوع ؟ كانت رائحة شئ يقلى آتية من المطبخ ، تذكرت أمي وهى تقلى الباذنجان في الزيت ، ولكن هذا ليس باذنجان ، ما هذا ؟ وفاجأني مضيفي:

– أتسنني تتغذي معي ؟

– شكراً

- ليست عزومة مراكبية.

ليست عزومة مراكبية، إذن هي عزومة حقيقية، أين أنت يا أبا نواس ؟ لا يا مضيفي العزيز أنا أقرأ جيداً ما خلف الكلمات، إنها حرفتي، صوتك مختنق وذهنك بليد وزوجتك وابنتك جميلتان وأنا فلاح وعيناي رصاصتان من جوع وشبق، الظهر أبيض وفى الصدر شق مبهم يحتوى حرماني المقهور.

كان لابد أن أترك الجنة وأنزل، لملمت أوراقى وأومأت برأسي وخرجت، فجأة وجدتني وسط الطريق على حدود القاهرة الشرقية وحيداً، تائها، وتساءلت هل يمكن أن أعود إلى البيت سالماً ؟ كانت البنايات من حولي شامخة ساكنة ترقب حيرتي، بينما الأطفال أمامها وفى أعلى الشرفات يصخبون ويلعبون، وكدت أسأل واحداً منهم، ولكن هل مثل هؤلاء المنعمين يعرفون أرقام الأتوبيسات، ومواعيد المترو؟ ! أخذت أحدق في مدخل هذه البنايات العالية علني أجد أحداً أسأله عن وسيلة تنقذني من هذا الضياع، ووجدته، كان أسمر اللون، نحيف الوجه. يرتدى فانلة زرقاء وبنطلونا أسود، رد تحيتي في حماس، وعندما لمحت عرجاً في رجله اليسرى أشفقت عليه من القيام ، سار بجواري خطوات وأشار إلى الجهة المقابلة للشارع ، شددت على يده ومضيت .

رجل وامرأة

(ر)

ارتدى رجل ملابسه في عجل وشرب قهوة باردة صنعها بيده أمس، وقبل امرأة نائمة، وتململ طفل صغير في سريره، وأصدر باب صوتا مزعجا أثناء فتحه وصوتا أقل إزعاجاً أثناء غلقه.

(ج)

ارتدى رجل ملابسه في عجل وشرب القهوة التي أصر أن يعملها أمس بنفسه، رافضا توسلات زوجته التي تكره رائحة القهوة، وقبل المرأة النائمة التي هي زوجته، وتململ الطفل الصغير الذي هو ابنه، وأصدر باب الغرفة صوتا مزعجا أثناء فتحه، فحرص ألا يتكرر ذلك أثناء غلقه، ولكنه رغم ذلك أصدر صوتا، وإن كان أقل إزعاجا هذه المرة.

(ل)

ارتدى زوجي ملابسه في عجل، دائما هو في عجل، وها هو

يترك ملابسه فوق السرير وفي الصالة، ويحيل شقتنا إلى فوضى، وشرب قهوة باردة، لا أطيق رائحة القهوة، باردة كانت أم ساخنة وقبلني وأنا نائمة، لماذا يوقظني ؟ رائحة فمه كريهة، خليط من رائحة التبغ والقهوة وبقايا طعام متخمر، أقول له اغسل أسنانك، فيهز رأسه بالإيجاب، ومع ذلك يعتبرني متخلفة ولا أفهمه، فنان، يظن نفسه فنانا، وهذا الطفل الذي سهّرني طوال الليل نسخة أخرى من أبيه، ها قد بدأ يصحو ، شيء مقرف ،لقد بلل ملابسي ، عليّ أن أرتدي ملابس أخرى نظيفة ، ولكني لم أغسل منذ أسبوعين ؟ أما هذا الباب المزعج فليس هناك حل غير إحراقه.

(ز)

ارتديت ملابسي على عجل، تؤنبني زوجتي على هذه العجلة،نائمة هي الآن، أرجو ألا تصحو حتى لا أسمع اسطوانتها المعهودة: الكرافتة معوجة، شعرك منكوش، لماذا لم تنظف أسنانك ؟ و... سأحرص اليوم على فتح الباب برفق حتى يخفت صوته المزعج ، وسأتركه مفتوحا حتى لا يصدر صوتا على الإطلاق. لكن لماذا أدخل هذه الغرفة وقد أكملت ارتداء ملابسي ؟ لن أدخل الغرفة ولن أفتح الباب، ولن أقبل المرأة ولن أداعب الطفل ولن أغلق الباب ولن أذهب إلى العمل ولن أحني رأسي، ولن أخلع ملابسي.

مادة أسمها الكرنك

في حديقة أشبه بغابة تتخللها أشجار عارية ، مختلفة الأطوال ، وفوق سور طيني متهدم جلست في جلباب أبيض ، في قدمي خف رخيص من البلاستيك ، كنت أنتظر .. لكن من بالضبط الذي أنتظره؟ لا أعرف ، مر بعض الوقت فإذا بفتاة تمر أمامي على بعد عدة أمتار ، كانت تسير في الطريق الزراعية التي تطل عليها الحديقة، خيل إلى أنني رأيت هذه الفتاة من قبل .. لكن من هذه الفتاة ؟ لم أعرف ولم أجهد نفسي في معرفة من تكون ؟ .. كثيرون هم الذين أعرفهم ويتناسوني .. لحظات ومرت فتاة أخرى ، لم تكن الأولى بالقطع ، لأني عرفتها على الفور ، متوسطة الطول ، ترتدى ثوبا سابغا على جسدها ، فلا يبين من مفاتنها سوى وجه طفولي برئ وجميل ، وشعر ناعم قصير شذبته قليلا ، فبدت مثل فتاة أوربية جميلة ، كانت الشمس أثناء ذلك تفرش الكون بآخر أشعتها، فاستطعت أن أراها بوضوح ، صحت من أعماقي وكأني أراها لأول مرة ، إنها هي ، تركت مكاني فوق السور المتهدم وهممت بخطوات

واثقة نحوها ، لم تكن المسافة طويلة بيننا ، وما إن شعرت بوجودي خلفها حتى توقفت ، إنها هي بالفعل ؟ أمسكت يديها الاثنتين مسلما ، وضغطت على يدها اليمنى ، ثم تركتها تنساب في رفق من يدي ، همست ببعض الكلمات ، وهنا بادرتني وهى تسحب يدها في غضب مشوب بدلال أنثوي :

– فريدة قالت لي أنك كنت بتعزف الموسيقى لمفيدة .

أعرف فريدة ، فهي زميلتها ، لكن من مفيدة هذه ؟، تجاهلت مسألة مفيدة ، وقلت لها مدافعا :

– ولما فريدة رأتني لماذا لم تكلمني ؟

ولم تجب ، وكنا سعيدين ، تركنا الحديث عن مفيدة وفريدة وأخذنا ننظر معا إلى تلك المزارع الواسعة عن يميننا أرزاً أخضر وذرة خضراء و نقيق ضفادع ، وعن شمالنا كان المصرف بمياهه القليلة تتزاحم فيه الأسماك فتصدر جلبة فتتناغم ونقيق الضفدع .. بدأنا نسير في الطريق ، وكانت الشمس قد اختفت وراء خيمة السماء السوداء ، ولن يفرج عنها إلا في الصباح الباكر ، قلت :

– النتيجة ؟

فقالت في عدم اكتراث :

– عندي أدب مقارن و " الكرنك "

شعرت أنها ليست حزينة ، ومع ذلك قلت لها مواسيا :

ـ ولا يهمك

وهنا قالت في صوت غريب :

ـ كلفتني هاتان المادتان خمسة وعشرين قرشاً .

كنا قد تعبنا من السير ، أو ربما ادعينا ذلك ، فعندما وجدنا جذع شجرة عجوز ملقى على الطريق أسرعنا بالجلوس عليه غير متلاصقين (كنا في المدرج (أ) ونحن طلاب في العام الماضي لا نجلس متجاورين لأن الشيطان سيجلس بيننا على حد قول أستاذنا .. وفى الكافتيريا كنا نجلس متجاورين ، ولم يكن يجلس بيننا الشيطان ، ولم يكن يرانا الأستاذ) أسندت قدمي إلى الأرض الترابية ، وعندما نظرت إلى قدمي اكتشفت أنني كنت أسير طوال الطريق بدون خف ، يبدو أنني نسيته في الحديقة ، وفوق ذلك كانت قدمي قد لصق بها روث حيوان رطب ، كان الروث قد تخلل أصابع قدمي ، انشغلت دقائق لأنظف قدمي من الروث ، أما هي فلم تسألني ماذا أفعل؟ويبدو أنها لم تلاحظ شيئاً . عندما انتهيت من تنظيف قدمي أخرجت من بين جلدها والثوب الذي تلبسه ، ولم يكن معها حقيبة يد ، أخرجت ورقة مالية ، ثم قدمتها لي وهى تغمغم بكلمات لم أتبينها ، أمسكت الورقة في يدي فوجدت أنها من فئة الخمسة

جنيهات ، أخذتها وعلى شفتي علامة استفهام كبيرة ؟

عند ذلك رفعت الغطاء عن رأسي — من عادتي أن ألف رأسي في الغطاء ، أبى يفعل ذلك وأمي تقول أن هذا خطأ — ومددت يدي لأطفئ المذياع الذي كنت تركته مفتوحا قبل أن أنام ، اصطدمت يدي بورقة ، أدركت على الفور أنها ورقة مالية ، عندما أمسكتها في يدي ، شممت فيها رائحة عرق أمي ، وكانت خمسة جنيهات حقيقة ، ورقة خضراء ، بجوار السرير كان يقف أخي الأصغر وكأنه يراقبني وأنا أحلم قال :

ـ تركت أمك لك الخمسة الجنيهات .

وكنت قد طلبت منها خمسة جنيهات لكي أذهب إلى الجامعة لمعرفة نتيجة امتحاني في الليسانس ، وبعد مناقشات ومراجعات وعتاب ذهبت لأنام وما لدى من أمل في الحصول على هذه الخمسة جنيهات قليل .. قليل .

وهناك في الكلية ، وجدتها ، كانت ترتدى نفس الثوب الذي كانت تلبسه في الحلم وتزين وجهها بشعرها القصير وابتسامتها المشرقة وأردت أن أحكي لها تفاصيل الحلم ،ولكن خجلت ، وعندما عدت إلى المنزل كنت قد نسيت أن أقول هل لدينا مادة اسمها " الكرنك " ؟ .

اللمس

بدأ الاجتماع منذ قليل ، عليه أن يسرع بالدخول حتى لا يتعرض لأي لوم ، له حتى الآن أسبوع في المدرسة ، استطاع فيه أن ينال ثقة مدير المدرسة ، واحترام الزملاء والزميلات وفوق ذلك حب الطلاب . بإيماءة من رأسه حي الجمع ودخل ، مقعد واحد فقط كان خاليا يقبع محشوراً كمنطقة عازلة بين مدرس شاب ومدرسة شابة ، شابة لفظ لا يليق ، مدرسة جميلة ، جلس على المقعد ، تكاد ركبته تلامس ركبة المدرسة العارية ، بل هي بالفعل لا مستها ، ركبة شمعية بيضاء عجز الشراب الأبيض القصير أن يصل إليها ، شعر بالحرج الشديد ، لم تكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها ركبتين عاريتين أو حتى يلامسهما ، ولكن آلمه احتكاك بنطلونه الخشن بهذا الشمع الأبيض الشفاف ، حاول أن يقنع نفسه أن الأمر طبيعي ، ولا داع للحرج على الإطلاق ، لكن الأمر لم يقف عند ذلك ، أحس بشيء يسرى في جسده ، شئ دافئ من الصعب تمييزه " عندما لمست يديها لأول مرة أحسست أن للمس لغة أخرى أفضل ألف مرة من لغة الكلام نثراً وشعراً .. لكننا افترقنا منذ ذلك اليوم الذي

لامست فيه يديها " .

تحدث المدير عن أشياء يعرفها كل المدرسين ، لم يسمع منها الأستاذ صالح شيئاً ، غير أنه انتبه لصوت المدير يوجه إليه الحديث مباشرة ، كل المدرسين والمدرسات يتطلعون إليه ، وسط هذا الحصار وجد نفسه يرد بصوت مخنوق مشوب بخجل حقيقي إن ما يفعله واجب وأن ما يفعله لا يستحق كل هذا الثناء .

عندما انفض الاجتماع أمسك المدير بيده وقدمه للزملاء بينما تولوا هم تقديم أنفسهم له: أحمد .. منصور.سعيد.. سامية ..سعدية، بحث بعينيه عن صاحبة الركبة العارية التفت فوجدها تقف بجانبه، بدا له أنها تراقبه ، مد يده إليها ، تلاقت يدان ، يد بيضاء ناعمة مثل الحرير ، لينة مثل الزبد ، ويد سمراء ظهرت عروقها الخضراء في بؤس لا يدرى كم من الوقت مر منذ وضع يده في يدها ، دقيقة ... دقيقتان، ساعة .. ساعتان ، لا يعرف بالضبط ، كل ما أدركه أنه أحس من جديد بذلك الشيء الدافئ الحنون يسرى في دمه ، كان الزملاء قد بدءوا في الخروج واحد إثر آخر ، سحب يده في تردد ، بدا مرتبكا وخائفا ، الحجرة الصغيرة تكاد تخلو إلا منهما — الحجرة الصغيرة تتسع من حوله " قال الناس عنا كثيراً واخترعوا أشياء لم تحدث ، ومع ذلك كنت سعيداً بها ، لكن لم

يحدث أن جمعنا مكان خال وكنا فيه وحدنا " فاجأته :

– الأستاذ صالح ورا ...

بارتباك وتسرع – لم تكمل جملتها – أجاب :

– أبداً ليس ورائي أي شئ .

أنب نفسه على هذا التسرع ، ففي مثل هذه الأمور يجب أن يكون ثقيلا " قال صديقي : في الحاجات دى لازم تكون ثقيل وعندما قلت له ثقيل إزاى ، ابتسم وهو يشير إلى صديقته التي تسير بجواره "، أما هو فإلى الآن لم يتعلم كيف يكون الإنسان ثقيلا؟ فاجأته للمرة الثانية ، ويبدو أنها كانت قد قالت أشياء أخرى لم يسمعها :

– سميرة أحمد .

– آه .. اسم على مسمى .

ثم ضحك لأول مرة ، كان سعيداً لأنه بدأ ينطلق في الحديث ، أو لأنه قال شيئا ربما أرضاها ، ضحكت هي الأخرى :

– ولكنى لا أجيد التمثيل .

كان عليه أن يضحك لهذا التعليق من جانبها ، ولكنه تذكر قول كاتب مجهول : كلنا ممثلون فوق هذه الأرض ، شعر بانقباض وضيق، على الرغم من نظراتها البريئة تنساب من عينين خضراوين

ضاحكتين " كنت أقول عنها : طفلة ساذجة بريئة ، يعجبني فيها طفولتها ، وكنت أقول عنها : إنها لا تجيد التمثيل ، وكنت ثقيلا معها بناء على نصيحة صديقي ، ثم اكتشفت أنني مخدوع وأنها تفوق فاتن حمامة في التمثيل وإن كان اسمها سلوى أحمد " .

– مالك يا أستاذ صالح .. لم تحدثني عن نفسك .

شعر بالاطمئنان عند سمع هذه الجملة منها ، فانطلق في حديث طويل ، وبعد أن لامس يدها للمرة الثانية ، كان يتحدث عن أشياء عامة تتعلق بأيام الدراسة ، وغباء الأساتذة وتطفل الطلاب وأشعاره التي لم تلق إقبالا ، وقصصه التي يكتبها لنفسه ،غير أنه لم يحدثها عن أبيه العجوز ، ولم يحدثها عن أمه التي هدها المرض ، لم يحدثها عن أخوته الصغار المسئول عن إعالتهم الآن ، لم يحدثها عن تجربته الفاشلة مع " سلوى أحمد " عن كل هذا لم يحدثها ، ومع ذلك اتفقا أن يتقابلا خارج المدرسة ، كان هذا في الواقع إنجازا طيباً بالنسبة له ، وربما حسبته إنجازاً طيبا بالنسبة لها أيضاً ، فما يحدث في الأفلام يمكن أن يحدث في الواقع.

عاد الأستاذ صالح إلى المنزل بعد انتهاء اليوم الدراسي ، فانتقى قميصا نظيفا ، ولم يكن الحذاء قديماً ، لذلك لم يبدله " سأكون معها ، سأحدثها عن كل شئ ، اعتقد أن خطأي الأكبر مع سلوى

أنني لم أحدثها عن كل شئ ، صحيح هي لم تحدثني عن كل شئ في حياتها ، لكنني يجب أن أكون صريحا مع سميرة أحمد " .

تلاقيا في الموعد المحدد ، السابعة مساء ، جلسا متقابلين حول منضدة ذات مفرش أخضر قديم ، المكان عام ، حديقة لا بأس بها لكازينو لا بأس به أيضا ، الأشجار الخضراء الطبيعية القليلة احتل آخرون المكان تحتها ، لم يبق غير الأشجار البلاستيكية التي تزينها لمبات كهربائية ، فبدت كامرأة في زي متبهرج ، بدا المكان له فاضحاً ، ومع ذلك لم يبال ، لحظات وجاء الجرسون يدارى شحوبه وكآبته بابتسامة مصطنعة ، مثل الزهور التي يحملها في يده، قال كلمة واحدة :

– عشاء

تطلع صالح إلى سميرة فابتسمت وهى تنظر في ساعتها بعين وتتطلع إليه بعين أخرى ، فهم أنها تريد عشاء ، ولم يكن هو شخصيا ذاق الغذاء اليوم ، أملى الجرسون في ثقة ما يريد وقالت هي:

– مثل الأستاذ تماما .

لم يكن قد بدأ الحديث عندما أتى الجرسون مسرعاً بأطباق العشاء يعاونه صبيان ، وبمجرد أن وضع الجرسون العشاء بدأ لسانه

ينطلق في الكلام تحدث عن أشياء خاصة جداً ، كان يتكلم كما لو كان يحدث نفسه ، لم تكن أشياء سارة بالمرة ، بدا له أنها تستمع إليه بوقار ، على الرغم من أن فكيها لم يتوقفا لحظة عن المضغ ، انتهى من حديثه وهو راض عن نفسه تماما ، فقد استطاع أن يقول كل شئ ، انتظر منها أن تقول شيئا ، قالت في إشفاق أو لا مبالاة :

– لماذا .. لا تأكل ؟

تطلع إليها من جديد بدت له أجمل مما كانت عليه صباح اليوم، كانت ركبتاه تلامس ركبتيها العاريتين أسفل المنضدة ، لكنه لم يشعر لذلك الإحساس الدافئ الحنون يسرى في جسده ... انتقل بنظره إلى سطح المنضدة أطباقها فارغة تماما إلى جانب أطباقه المليئة لم تمسها يداه ، تطلع إليها مرة أخرى ، بدت عيناها جامدتين ، لم يقل شيئا :

– لماذا لا تأكل ؟

شعر ببرودة تسرى في جسده ، بدا له الجو بارداً حتى الطعام نفسه بدا بارداً .

– سوف أدفع أنا الحساب .

لم يكن يسمعها ، كان يحدق في الأشجار الخضراء المصنوعة من البلاستيك تزينها اللمبات الكهربائية الملونة.

سلمى

كنا نلعب بالكرة في شارعنا الواسع أنا وزملائي ، وكنت على وشك إدخال الكرة في مرمى الفريق المقابل ، عندما فوجئنا جميعا بالكرة تصطدم بجسد فتاة صغيرة كانت تعبر الطريق ،فتطرحها أرضا، ويطير صندوق كان بيدها بعيدا ، ليتناثر في عرض الشارع كل ما كان بداخله من أشياء . أسفنا في البداية لما حدث للفتاة التي كانت تبكي وتصيح بعد أن قامت من على الأرض :

ـ صندوقي . . أين صندوقي ؟

أسرع زميل لنا وقدم لها الصندوق ، فخطفته من يده في لهفة ، وعندما تطلعت إلى داخله ، صاحت من جديد وهى تبكى بحرقة هذه المرة :

– ضاع مالي . . مالي ضاع .

ثم أخذت تغمغم بكلمات وهى تنظر إلينا من وراء دموعها ، كانت الفتاة تتحدث بلغة غريبة ربما كانت تسبنا ، فغرنا أفواهنا في دهشة عاجزين عن تقديم أية مساعدة إليها ، كانت ملابسها غريبة أيضا ، أسمال ولكنها زاهية الألوان ، غير متناسقة ، وكانت تغطى رأسها بشال أسود تعلوه طاقية زرقاء أحال التراب لونها إلى اللون الأسود. تحلقنا جميعا حول الفتاة وكأننا نشاهد مخلوقا غريبا جاء إلينا من كوكب آخر . لم نستطع أن نحدد المال الذي ضاع من الفتاة بالضبط ، حتى رأيناها تشق حلقتنا وتسرع إلى الأرض تجمع من حولنا ومن بين أقدامنا أعقاب سجائر وبقايا سجائر يقترب بعضها من سيجارة كاملة . وعندما انتهت من جمع كل ما على الأرض وجدناها تبتسم وهى تجفف دموعها بطرف كم جلبابها ، ثم تحمل الصندوق وتسير دون أن تلتفت إلينا .

كنا قد توقفنا عن اللعب ، وفقدنا حماسنا له أيضا ، فوقفنا

جميعا نودعها في صمت ، ثم تفرق كل منا إلى منزله ، ولكنى وجدت نفسي أنسحب من بين زملائي وأصدقائي وأسير خلف الفتاة، كنت أريد أن أعرف ماذا تفعل بالضبط بهذا العدد الكبير من أعقاب السجائر وبقاياها الكبيرة التي يرمي أبى مثلها دون اهتمام ؟

تتبعت الفتاة وسرت خلفها في حذر ، كانت تنحني كل عدة خطوات إلى جوار حائط أو في وسط الطريق ، ثم تعتدل حاملة عقب سيجارة أو أكثر وتضعه في الصندوق . إنها ما زالت تجمع أعقاب السجائر .. لكن ماذا تفعل بها ؟ لابد أن أسألها ، لحقت بها ، اقتربت منها ، يبدو أنها كانت تشعر بوجودي خلفها واقترابي منها، التفتت إلى فجأة وهى تبتسم ، ولم أجد أثرا للدموع في عينيها، فتشجعت وسألتها :

- ما اسمك ؟

ابتسمت في ثقة واطمئنان معا ، وقالت :

- سلمى .

- ماذا تفعلين بأعقاب السجائر التي تجمعينها يا سلمى ؟!

ضحكت سلمى وسارت في طريقها دون أن تجيب على سؤالي ، أكان سؤالي ساذجا ؟ أم كان محرجا لها ؟ تابعت سيرى خلفها وأنا أعيد عليها السؤال مرة بعد أخرى ،وإذا بها تتوقف فجأة ، مثل

فرس حرون ، فكدت اصطدم بها ، ثم واجهتني قائلة، وبسمة عريضة تفترش وَجهها، وكنا قد اقتربنا من محل لبيع الفول والطعمية :

ـ اشتر لي رغيفا وطعمية وأنا .....

ولم أدعها تكمل كلامها ، قاطعتها قائلا :

– حاضر .

وأسرعت بشراء ما طلبت وقدمته إليها ، فاختطفته في لهفة من بين يدي، وجلست بجوار الحائط ، وجلست أنا في مقابلها، كانت تأكل في نهم، بينما أتطلع إليها مذهولا ومأخوذا في نفس الوقت بعينيها اللتين اكتشفت جمالهما الآثر ، قلت :

ـ أنت جميلة يا سلمى !

ابتسمت في ود ، وقالت وكأني أخاطب فتاة أخرى ، وكانت لم تزل تلوك بقايا طعام في فمها :

ـتريد أن تعرف لماذا أجمع أعقاب السجائر ؟

قلت في غير حماس هذه المرة ، وكأن السؤال لم يعد يعنيني :

ـ نعم .

فقالت :

ـ لكي أشترى الرغيف والطعمية .

قلت مندهشا :

ـ هل تبيعين هذه الأعقاب ؟

قالت :

ـ أقدمها لشيخ قبيلتنا العجوز ويعطيني في مقابلها خبزا ، ومكانا أبيت فيه .

قلت في حماس :

ـ تعالى معي إلى البيت وأنا أعطيك خبزا كثيرا .

تطلعت سلمى إلى وجهي في صمت ، ثم ربتت على وجهي في ود ، فشعرت بلمس يدها الخشنة ، وتركتني وهى تضحك ضحكة عالية هذه المرة .. هل كانت سلمى تسخر منى ؟ وقفت مذهولا بينما هي تبتعد حتى اختفت تماما ، وفى البيت لم أخبر أحدا بما حدث مع سلمى ،ولكنى لم أنسها .

يوم الصيد

انتزعني أبى من دفء الفراش ، وقال في لهجة حازمة :

– غير ملابسك ، واذهب مع جدك هاشم .. الدور عليك اليوم

فركت عيني وتحسست الأشياء من حولي ، كأنني في حلم لم أصحو منه بعد وقلت :

– هل الفجر وجب ؟

لم أسمع ردا ، ولكنني بعد قليل سمعت صوت أبى في حظيرة المواشي وهو يقول لأمي ، التي تطلب منه أن يتركني أنام ، لأنني ما زلت صغيرا ، والجو شديد البرودة :

– حسام لم يعد صغيرا .. لا أستطيع أن أخالف كلام أبى

عند ذلك عرفت أنه لابد من القيام ، كما أن الجد لن يدعني أنام هانئا ، سيأتي بنفسه ويحملني حملا إلى خارج القاعة الدافئة ، ارتديت بالطو قديم فوق ملابسي ، وشربت بعض الماء قبل أن أخرج من المنزل عملا بنصيحة أمي ، كنت أعرف أن جدي هاشم ينتظرني أمام الباب الخلفي المفتوح على سكة المعاهدة ، استطعت بالكاد أن أراه عبر الظلام الدامس ، كان متكوما على نفسه مثل خيمة صغيرة

بجوار الحائط ، وبجواره شبكة الصيد وعصا طويلة ، بدت في يده كعمود لهذه الخيمة المتكومة ، اقتربت منه وأنا أظن أنه لم يرني أو يشعر بي في هذه الظلمة الحالكة ، لمست كتفه في رفق وقلت :

- صباح الخير يا جدي

رد في ثبات :

- صباح النور يا حسام .. هل أحضرت معك الشوال ؟

قلت :

- نعم

ثم سرت خلفه على سكة المعاهدة المرصوفة بالإسفلت ، وبعد قليل عطفنا على ترعة المهندس ، فسرنا على طريق ترابي ضيق نتجنب الانزلاق في الحفر الصغيرة وروث البهائم الأخضر ، وبعد جهد وصلنا إلى المصرف الجديد ، عند ماكينة المياه الميري ، قال جدي :

- اجلس هنا .. ولاتنس أن تخرج الخبز من الشوال

جلست في حمى جدار الماكينة ، ثم أخرجت الخبز من الشوال ولففته جيدا في المنديل ، و وضعته بالقرب منى ، بينما ذهب جدي إلى الشاطئ ، يتفقد المكان المناسب الذي يصلح لوضع الشبكة.

غاب جدي فأخذت أردد ما أحفظه من القرآن الكريم ، كلما

رأيت خيالاً أو ظل شئ من بعيد أظنه جنيا أو عفريتا ، استعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأعيد من جديد ما قرأته من القرآن ، أحاول النوم فلا أستطيع ، يخيل لي أن ألسنة من اللهب تتراقص أمامي ، ومن وسطها تخرج جنيات تريد أن تلهمني ، بعد مدة أظنها دهرا يأتي جدي على مهل ، ويلقى بكومة من أعواد الحطب اليابس وبعض الهشيم الناعم بجواري على الأرض ، فأفزع ، ولكنى أشعر بعدها أنني استرددت روحي ، فيذهب خوفي ، وعند هذه اللحظة ، تكون قد انتهت نصف مهمتي ، يهزني جدي بيديه ، ويقول :

– هل نمت ؟

فأرد عليه بقوة لأثبت له أنني لم أكن نائما أو خائفا :

– لا .. أنا صاح يا جد

لا يعلق جدي ويبدأ في رص الحطب فيأخذ شكل هرم صغير، ثم يشعل النار في لفة صغيرة من الهشيم الناعم ويدخله أسفل هذا الهرم ، فيبدأ الدخان في الصعود رويدا رويدا ، وعندما تزداد كثافة الدخان وتنتشر بقوة ، ينفخ جدي بفيه في الهشيم ، فتشتعل النار ، ويشتعل وجهه فيبدو مثل ألسنة اللهب التي تخرج مختلطة بالدخان الذي بدأ في الاختفاء .

اقترب بيدي من النار ويحمر من وهجها وجهي ، ويكون

في ذلك الوقت ضوء النار قد بدأ في كشف مظاهر الكون ، فتتحول الأشباح المخيفة والجنيات الرهيبة والعفاريت المتمردة إلى أكوام من السباخ وأعمدة تليفون وأشجار صغيرة نحيفة عارية من الأوراق،في تلك اللحظة التي أشعر فيها بالأمان التام، يتركني جدي من جديد، ليطمئن على وضع الشبكة ، ثم يعود بعد قليل وقد أحضر معه عدة سمكات صغيرة ، اصطادها بيديه من جيوب صغيرة تكون في باطن جسر المصرف ، إنه يعرف كيف يصطاد هذه الأسماك ومتى يصطادها ؟ يلقى جدي بالأسماك فوق النار فتأخذ في التقافز فوقها حتى تستقر ساكنة تماما ، وعندما يعبق الجو برائحة السمك الطازج، يطلب منى جدي الملح ، فأقدمه له ، فينثره فوق الأسماك التي يكون قد تفسخ جلدها ، يأخذ جدي بين أصابعه قطعة من السمك الأبيض ، يتذوقها ، ثم يقدم لي بقيتها قائلا :

– ذق يا حسام

آخذ منه القطعة التي تكون ساخنة جدا ، تلسع حرارتها فمي فلا أعرف بالضبط إذا ما كان السمك قد نضج أم لا ؟ لكن رائحة السمك الشهية وشدة البرد وجوعي كل هذا كان يجعلني أقبل في نهم على الطعام .

مع انتهائنا من تناول هذه الوجبة الشهية ، تكون الدنيا قد

تكشفت تماما ، والشمس صارت كتلة لهب دائرية في الركن الشرقي من الكون ، بينما النار أمامنا قد أخذت في الخمود ، و يجهز عليها جدي بعد أن يضع فوقها التراب ، ثم يقول وهو يدوس بقدمه على التراب :

– هات الشوال واتبعني

أسير خلف جدي على الشاطئ حتى نصل إلى موضع الشبكة فيطلب منى أن أنتظره على الجسر ولا أتحرك بعيدا ، ثم ينزل إلى الماء ، بعد أن يكون قد خلع جلبابه ، فلا يبقى فوق جسده سوى قميص أبيض قصير يكاد يستر عورته ، يجذب جدي الشبكة وحده، ولكن عندما تكون الشبكة ثقيلة فيعنى ذلك أن الصيد وفير ، عند ذلك أسمع صوت جدي وكأنه قادم من بعيد جدا :

– ولد يا حسام .. انزل يا ولد

يقولها جدي بفرح حقيقي ، فأنزل معه ، ونبدأ في جذب الشبكة من الماء

– هيلا .. هوب .. يا معين

أردد نفس الكلمات مع جدي ، وأخيرا يسحب جدي الشبكة جامعا أطرافها في يده ، ثم يحملها برفق إلى أعلى الجسر أما أنا فأسند بيدي معه هذا الحمل الثقيل ، أو أدفع بيدي الأسماك التي

تريد الإفلات من عيون الشبكة الواسعة .

عندما نصل إلى الشاطئ يحمل جدي الشبكة ويفردها بعيدا عن أعين الناس الذين يكونون قد بدءوا في الانتشار فوق الطريق الرئيسي وعلى الطرق الجانبية الصغيرة ، اتبع جدي خلف شجرة كبيرة أو في أرض خلاء ، نفتح الشبكة في حرص ، ونبدأ في إفراغ السمك في الشوال فأرى علامات الفرح على وجه جدي ، فأنسى ما قاسيته من آلام هذا الصباح ، وأسعد لتهليل أخوتي وفرحهم بالأسماك التي سنفرغها في الطشت الكبير بعيدا أيضا عن أعين نساء الحارة ، يلم جدي الشبكة ويجعلني أحملها أنا هذه المرة ، بينما يحمل هو شوال السمك فوق ظهره في نشاط عجيب فأشفق عليه ، وأنا أقول :

-- أحمل عنك يا جد

يبتسم جدي وهو يضع يده الخالية على كتفي ، ويقول وكأنه لم يستمع لسؤالي :

- أوعى تكون نسيت المنديل

أؤكد لجدي أنني لم أنساه ، فيطلب منى أن أضعه فوق رأسي ليقيني حرارة الشمس التي بدأت في الارتفاع ، فأفعل وأنا أتقافز أمام جدي كسمكة طازجة متعجلا الوصول إلى المنزل .

شاي بالنعناع

كان قد استقر في مكانه في الطابور عندما خطر له أن الجمع الواقف أمام دكة خشبية مصقولة والرابض خلفها ذئب بشرى يخفى عينيه خلف نظارات سوداء سميكة ، خطر له أن هذا الجمع لا يستحق أن يقف في طابور ولكنه عندما ألتفت إلى الوراء وجد طابوراً طويلا ، طويلا جداً ، ففزع ، بيد أنه عادت إليه رباطة جأشه وابتسامة مريحة عندما اكتشف أنه في المقدمة ، ولا يفصله عن الذئب الرابض سوى رجلين ، ابتسم للذئب ، ثم لنفسه مناجيا : " بيده أن يضع حداً لمستقبلي ، عامل مطبخ ، كاتب ، سفرجى ، جرسون، أي حاجة أنا راضى".

ثم نظر نظرة أخرى للذئب ، قلقة كانت هذه المرة ، أعقبتها نظرة يائسة للخلف " هل أكون واحداً من العشرة المطلوبين "

تطلع الذئب متفحصا الطابور ، يمكنه على الأقل أن يرى جيداً سحنة عشرة وجوه يقفون أمامه ، كان ثالثهم آدم ، عينان غائرتان وأنف دقيق وفم ممصوص ، كأنه لعجوز تجاوز الستين ، قليل الحجم ، قصير القامة لا أعتقد أن بنيانه يتحمل مثل هذه الوقفة أمام

طابور جمعية لشراء لحم أو دجاج أو سكر ، من المؤكد كان سيفرم بين أجساد الدلالات.

ركز الذئب ناظريه على آدم ، ثم ابتسم ابتسامة صريحة متواطئة، تأكد لآدم أنها مصطنعة ، ومع ذلك بادله بأخرى صادقة، هكذا آدم فهو مخلص في مثل هذه المسائل العاطفية ، التفت الذئب حول نفسه ، ثم أعقب ذلك بحركات مبهمة بيديه وعينيه ، فتأكد لآدم والواقفين أن الرجل في ورطة أو في حاجة إلى مساعدة . أشفق الواقفون على أنفسهم ، ماذا يصنعون له ! لكنه سرعان ما بدد هذا الإحساس لديهم ، إذ أشار إلى آدم ، فتقدم مسرعاً ملبيا ، وسط تذمر الآخرين الذي ظهر في صورة ضجيج وكلمات مبهمة ، فما كان من الذئب إلا أن خلع نظارته وضرب بقبضة يده على الدكة الخشبية ، فلمع خاتمه الذهبي الكبير عاكسا أشعة شمس صباحية غاضبة ، كان آدم قد وصل إليه ينتظر منه الأمر ، بادره الذئب على الفور بمجرد سكوت الواقفين :

- يبدو أنك في حاجة ماسة للعمل .

- نعم .

ثم أضاف :

- نعم يا سيدي .

ـ هل لديك .. أقصد أتعرف أحداً في الشركة ؟

ـ ولماذا واسطة .. إنني أحمل ليسانس في الآداب ؟

عندئذ قاطعه الذئب في صوت بارد :

ـ إنك في حاجة ماسة إلى العمل .

ـ نعم يا سيدي

ثم فتح درجا أمامه وأخرج منه ورقة مالية فئة عشر جنيهات وأعطاها لآدم وقال في لهجة واثقة :

ـ علبة سجائر مارلبورو ... لا تتأخر

لم يقو آدم على الرفض ، أخذ الورقة المالية وسار وسط دهشة بعض الحاضرين وازدراء وسخط البعض الآخر . أما هو فقد عزم على شئ آخر يجهله الحاضرون جميعا ، فعندما اختفى عن أعين الذئب البشرى القابع خلف الدكة الأنيقة ألقى نظرة أخرى على الورقة المالية وابتسم .

في مقهى متواضع بأقصى المدينة ، لا يطلب نادله بقشيشا ، ويقدم شايا بالنعناع ، جلس آدم يقرأ في جريدة المساء دون أي شعور بالذئب ، وتحت باب وظائف خالية وقعت عيناه على إعلان جديد، فعزم على التقدم إليه على الرغم من إحساسه الوثيق أنه لن يقبل .

مطاردة محسومة

كنت أظن أنني أسير وحدي ، بعيدا عنه ، لذلك استخفنى الطرب وأخذت أردد في صوت أكاد أسمعه وحدي :

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالأندلس

ولم أكن أتوقع أبدا أنه يمكن أن يلحق بي ، ويسير خلفي هنا ، في زحام القاهرة الكبرى ، مدينة الألف مئذنة وأم الدنيا ، وكيف له أن يجدني وسط خمسة عشر مليونا من البشر ؟! لكن خاب ظني ، وانعكس توقعي ، لقد كان وهما مثل وهم المساطيل في حكايات ألف ليلة وليلة.

عندما اكتشفت أنه يتبعني مثل ظلي ، لم يسقط قلبي في ركبي كما تقول العامة ، وإنما الذي سقط هو ساعة يدي القديمة الخربة التي أخجل عندما يسألني أحد عن الوقت ، فأقول له ساعتي واقفة ، قلت لم يسقط قلبي في ركبي ، وبتعبير آخر لم أخف، لقد اعتدت على مطاردته لي في الغيطان والحواري والمقاهي وها هو الآن يتبعني إلى القاهرة أم الدنيا ، ومنتجع السياح العرب ، والمكان المفضل للسفير الإسرائيلي . كان لابد أن أتوقف عن الغناء ، وتوقفت بالفعل وأخذت أفكر وأنا أسرع الخطى وسط الزحام بينما خطاه الثابتة كظلي تتبعني . ماذا أفعل دبرنى يا وزيري ..قلت ذلك لنفسي ، وأنا أعنى شيطاني ، الذي أسرع بالحضور بمجرد سماع هذه الجملة . قال في خبث ،أعنى شيطاني :

– استلق على الأرض مدعيا الموت .

ولأني لا أثق فيه ، فكرت وقلت لنفسي : خبثاء هم الشياطين . ستدوسك الأقدام يا ابن عبد الحليم ، وتصبح تحت أقدامهم كالفطيرة فيحملون لحمك وعظامك ، ويضعونها بجوار الرصيف ، ولن تجد من يجمعها ويضعها في كفن ، ويدفنها ولو في مقابر الصدقة . وهكذا ناقشت الأمر مع نفسي ورفضت اقتراح الخبيث .. ولكنه عاد يلح محاولا إقناعي ، فقال:

- يكفيك أنك لو مت أي ميتة ستحرمه من المكافأة

وراقني اقتراحه هذه المرة ،وكدت أفعل ،فالمطلوب أن يسلمني حيا ،وليس جثة ،غير أنني في تلك اللحظة التي كدت أرتمي فيها على الأرض وأنا أخرج لساني له، ظهر فجأة أمامي رجل في ملابس حريرية بيضاء ، ولحية بيضاء أيضا، لم أشك لحظة أنه ملاك ، نزل من السماء كي ينقذني ،وسمعته يقول في صوت غريب ، وهو يمرق من جواري :

- يا متعوس هو لم يستطع

فقلت على الفور :

_ إذن لماذا لم يقبض على ؟

وأخذت أنتظر الإجابة ولكن دون جدوى ، ولما لم أسمع ردا ولم أجد أحدا ، التفت إلى الوراء ، فوجدت الرقيب خلفي مباشرة بيني وبينه مقدار خطوتين لا أكثر ، فشككت في الأمر ، هل هو الذي كان يتحدث إلى منذ قليل ؟غير أن العجيب في الأمر أنه لم يعيرن أي اهتمام ؟هكذا قررت ،وهكذا تأكدت أيضا عندما وجدته يحدق بعينه الوحيدة — نسيت أن أقول أنه أعور– في باطن ساق إحدى الفتيات ، التي تكشف أيضا عن جزء من فخذيها ، وكان الجو شديد الحرارة ، ووجدتني أنا الآخر أحدق مثله في هذا اللحم ،

أكاد التهمه ،وقد ذكرني بالجوع ، حتى كدت أنسى غريمي ، الذي كان قد نسيني هوَ الآخر، ولكن هل هذا معقول ؟ لماذا لا تكون هذه الفتاة جزءا من اللعبة ؟ وأنها مجرد طعم لاصطيادي .

ابتعدت عنه ، هكذا ظننت ، ودخلت في الزحام ، وأنا أشعر ببعض الأمان، حتى كدت أغنى من جديد، ولكن وا أسفاه! عندما التفت خلفي ، وجدته خلفي يكاد يصطدم بي ، والفتاة متعلقة في ذراعه، ويالها من فتاة كانت ذات وجه قبيح مثله ! بل هي صورة منه ، أسرعت الخطى مبتعدا عنها وأنا أصرخ هذه المرة ، عند ذلك مرقت سيارة نقل عام تشق الزحام ، تكأكأ عليها الجمع وأنا معهم ، ووفقني الله وركبت ، لا أعرف إلى أين تسير السيارة ؟ لا يهم ،المهم أنني تخلصت منه، وأصبحت الآن داخل السيارة،حمدت الله وشكرته.وفى السيارة صدع رأسي المحصل،قائلا في سماجة :

– الأجرة يا أفندى

فقلت :

– حاضر

وقال جارى في صوت رقيق :

– من فضلك ..لو سمحت

فقلت أيضا :

ـ حاضر

وعاد المحصل ولكن بصوت غليظ هذه المرة :

– يا أفندي

فقلت مرة ثالثة وأنا أضع يدي في جيب سروالي الداخلي الذي أحتفظ فيه بالبطاقة الشخصية وبعض الجنيهات القليلة : حا... ولم أكمل الكلمة حيث اكتشفت أنني نشلت ، لم أفكر وقتها في المحصل الذي كان يبتسم ، ولم أفكر حتى في غريمى ، لقد صرت في موقف لا أحسد عليه ، قلت بصوت يسمعه كل من في العربة :

– سرقني ابن اللئيمة .

وهنا ضجت الأصوات في العربة بين مبسمل ومحوقل وهازئ ومتشف ،ووسط كل هذه الضجة اخترق أذني صوت يقول :

–يا زمان الوصل بالأندلس

فكدت أجن

أخذت التفت وأبحث عن صاحب الصوت ،من المؤكد هو الذي سرقني ،غير أن رجلا جعلني أشك في نفسي ، عندما قال: اتركوه يا جماعة .. هذا مجنون ..بيغني ويقول :

– يا زمان الوصل بالأندلس

وعند هذه اللحظة وجدت المحصل يندفع نحوي في قوة ، وأنا أيضا اندفع نحوه بحكم دفع الناس لي ، ليمسكني من رقبتي قائلا وهو يوجه حديثه إلى الركاب :

–أنا أدرى بألاعيب هؤلاء الحواة .

ثم أضاف بلهجة آمرة وساخرة في ذات الوقت :

– طلع الفلوس يا ابن اللئيمة .

حاولت أن أقول شيئا أو أن أدفعه بعيدا عنى فلم استطع ،ووجدتني أحدق في وجه ليس غريبا عنى أبدا ، وخارت كل قواي ، إذ كان هو نفسه غريمى الذي يراقبني منذ الصباح . والغريب أن شيطاني الخبيث قال لي :

– فرصتك أتت ،ادع الموت واستلق فوق أرض العربة ، هنا لن يمسك أحد بك.

وافقته وحاولت أن أفعل فلم أستطع ،لقد كنت محشورا بين الأجساد الساخنة ومرفوعا عن أرض العربة بمقدار عدة قبضات .

القطار البطيء

عنت له الفكرة أثناء عودته أول أمس خائباً من مصلحة الجوازات ....كانت العربة مزدحمة والجو حاراً شديد القيظ لا يشجع مباشرة على اختراع الأفكار ، نفى عن نفسه الغباء عندما واتته الفكرة ، بالأحرى كان سعيداً بهذه الفكرة ود لو نفذها على الفور ولما كانت ظروفه لا تسمح أجّلها إلى صباح اليوم .

قال في ذات نفسه الدعاء وحده لا يصلح الأمور، وكان قد صلى الفجر حاضراً ،وعَدل عن فكرة موت هذا الموظف الذي رفض استلام أوراقه في وقاحة . بيد أنه خجل أن يطلب من الله في الصلاة شيئاً دنيوياً كهذا ، خاصة وأن الدنيا إلى زوال واكتفى بأن قال يا أرحم الراحمين ارحمنا اللهم نجنا من الهم والغم والكرب العظيم ، وضع الأوراق بعناية وحذر في جيب البنطلون الخلفي مع البطاقة ولما تحسس جيبه انتابته المخاوف ، فقد يظن به اللصوص الظنون " سأدوخ من جديد السبع دوخات لو ضاعت هذه الأوراق " سحب الأوراق في رفق ووضعها في جيب البنطلون الأمامي ، للحظة فكر، كان يجب أن أشترى كيساً أضع فيه هذه الأوراق، ثم فجأة تذكر شيئا فأخرج على الفور ورقة نقدية صغيرة ووضعها في جيب القميص العلوي عادلاً عن فكرة شراء كيس لحفظ الأوراق .

ا- الفكرة وكيف جاءته :

"قال الرجل النحيل المصوص الوجه ، وهو ينقل نظراته بين الشاب الجالس فوق المقعد يدمن نظراته بين سطور الجريدة والعجوز المتورمة الوجه كادت تختفي عيناها ، تقف خلفه وكانت تعض أسنانها من الألم :

- لم يعد عند الناس دين .. أين الإسلام ؟

قلت في نفسي لو كنت مكان هذا الشاب لأجلستها .. ثم خطرت لي فكرة : ورقة نقدية صغيرة ، يأخذها أول شحاذ أقابله يكون صادقاً يدعو الله أن يصلح أحوالي .. يستجيب الله لدعائه .. لا يردني موظف الجوازات هذه المرة "

ب - فكرة فرعية:

"أنا الآن بجوار محطة السكة الحديد ؟ لماذا لا أركب القطار ؟ إنه أرخص بكثير من الأتوبيس والتاكسي " .! تطلع إلى معصم يده اليسرى تذكر على الفور أن ساعته ليست معه ، تلفت حوله وقال له ثالث رجل مر به : التاسعة والنصف .

قال : شكراً وتأكد حدسه أن ثمة قطار سيقوم من المحطة حالاً . ردد في نفسه وهو يسرع الخطو "قلب المؤمن دليله ". أسرع يرتقى درجات السلم الخارجي لمبنى المحطة، كان عليه ألا يتوقف، غير أنه استرعى انتباهه الرجل المتكور أعلى السلم ماداً يديه إلى الأمام يكاد يقطع عليه الطريق ، اختفت ساقاه خلف فخذيه بحيث يبدو للناظر كأنما بتر نصفه الأسفل من عند الركبتين . وقف متحيراً للحظة ثم مد يده في جيب القميص العلوي وأخرج ورقة نقدية صغيرة

رماها في حجر الرجل وجرى يلحق بالقطار .

ج - اليقين المفقود :

"أعرف أن هذا الشحاذ لا يستحق الصدقة وأعرف أنه يخفى ساقيه خلف فخذيه وأعرف أنه يحمل في طيات ملابسه ما يكفى حاجتي لسنة قادمة أو أكثر .. لكن هل يستجيب الله لدعوته ؟" . القطار لا يزال بجوار الرصيف ، هذه هي الصفارة الأخيرة .. تحرك يجرى الآن خلفه ، لحق بالقطار أخيرا. قالت امرأة تفترش الرصيف تنتظر القطار القادم (على مهلك يا بني) ارتمى على مقعد خال بين لا مبالاة الركاب .. قال بصوت متقطع "نفسي أنقطع ".

هدأت أعصابه قليلاً وبدأ تنفسه يعود إلى وضعه الطبيعي ، تخيل نفسه يقف أمام الرجل القابع خلف المكتب وراء الشباك الحديدي في مصلحة الجوازات يبتسم له وقد أخذ الأوراق منه :

ـ تمام يا أفندم .. أية خدمة .

قال الكمساري وهو يدق بيده خلف المقعد :

- تذاكر .

انتظر الكمساري حتى كتب له التذكرة ثم أخذها وانتقل بجوار الشباك ، مد بصره من خلال النافذة يتابع الحقول وأعمدة

التليفونات :فوجئ بانحسار اللون الأخضر في الحقول ثم اكتشف أن القطار يسير ببطء شديد

د- خاتمة حزينة :

يقول المثل العامي : " يا طالع من بلدك حزين راح تفرح فين" وأنا حزين ، والقطار يسير ببطء شديد يكاد يتوقف، أخيراً وصلت إلى مبنى مصلحة الجوازات لأجده مغلقاً لأن اليوم "إجازة رسمية بمناسبة عيد الثورة المجيدة ".هكذا قالت الورقة المكتوبة بخط رديء وهي تكاد تسقط على الأرض الموحلة .

عم شحاته أبو رشفة

-1-

كان العم شحاتة أشهر وأهم شخصية في عزبتنا ، فلولاه ما دخلت المياه النقية إلى العزبة ، ولا أنارت الكهرباء شوارعنا وداخل بيوتنا ، وهو فوق ذلك رجل طيب بمعنى الكلمة . لم يؤذ أحدا ، تراه مبتسما دائما ، خدوما لا يتأخر عن مساعدة أي أحد من العزبة أو من خارجها ، ومع ذلك كان اللقب المعروف به في غيابه طبعا " شحاتة أبو رشفة " .

وأنا الذي كنت أحب عمى شحاتة وأكن له احتراما كبيرا ، لم

أكن أقبل أن يدعوه أحد بهذا اللقب ، أما هو نفسه — وقد عرفت ذلك فيما بعد — فلم يكن يجد غضاضة في هذا اللقب ، وكثيرا ما كنت أراه وهو يرشف بصوت واضح ، ثم يمسح منخاره بطرف كم جلبابه الواسع الذي كان دائما غامق اللون أسود أو بنى أو أزرق .. وقد لاحظت في الأيام الأخيرة من حياة عم شحاتة أنه يرشف بكثرة وبصورة لافتة للنظر ، وكان في هذه الأيام قد انقلب حزينا بسبب تنكر كثير من الناس في العزبة لجهوده ، وربما بسبب المرض الذي ظهر عليه بصورة واضحة .

-2-

كان لقائي المعتاد بعم شحاتة في الصباح الباكر عند كوبري الصيفي ، هو عائد من عمله الليلي خفيراً في منطقة الإصلاح الزراعي، وأنا ذاهب إلى المدرسة ، قبل أن نلتقي بعدة خطوات أشم رائحة الطعمية الساخنة ، وقبل أن أنطق يبادرني بتحية الصباح :

– صباح الخير يا أستاذ

لم يزد عن هذه الكلمات الثلاثة ، أما الأستاذ الذي هو أنا فليس إلا تلميذ في الصف الأول الثانوي . ولذلك كنت أسعد بهذه التحية ، فأزفر من أعماق صدري ، دلالة على الرضا ، إنه العم شحاتة

يقدرني ويحترمني .

– صباح النور يا عم شحاته

-3-

إنه يوم الاثنين ، أعظم أيام الأسبوع وأهمها في العزبة ، أو بالنسبة لي على الأقل ، إنه يوم الإجازة الأسبوعية للعم شحاتة ، فقد كان العم شحاته ينام معظم نهار هذا اليوم على غير المعتاد ،استعدادا للسهر وملاقاة الأحبة والجلوس مع الأهل والأقارب . أقول على غير المعتاد ، لأن العم شحاتة في باقي أيام الأسبوع يعمل طوال النهار في الحقل ، وفى آخره يعود منهكا إلى عمله الليلي في المدينة ، فما الذي يفعله خفير لا يحمل إلا عصا من الخيزران سوى النوم وهش القطط والكلاب التي تحاول الاقتراب من غذائه أثناء صحوه ؟ !

في هذا اليوم تبدأ السهرة ، بعد العشاء مباشرة ، ويسبقني أبى ومعه أمي إلى بيت العم شحاته وهناك يجتمعون مع نفر كبير من أقارب العم شحاته ونسائه فله زوجتان الأولى فاطمة والثانية هانم ، وإلى جانب ذلك هناك بناته الأربعة ، وهناك أيضا صباح زوجة محمد أبو أمام ابن فاطمة من رجل آخر ، كنت أتأمل في الوجوه

فأجد الجمع يغلب عليه النساء ، أما الرجال فقليلون ، فكل رجل يأتي بزوجته وقد يغادر المكان قبل أن تنتهي السهرة التي كانت تطول إلى منتصف الليل ، رغم شدة البرد في الشتاء إلا أن كثرة الأنفاس والنار التي لا تخبو في الموقد الفخاري ونار النرجيلة التي لا تهدأ ورائحة المعسل وأكواب الشاي ، كل هذا كان كفيلا بإشاعة الدفء في المكان والنفوس معا .

- 4 -

لم أكن لأحضر السهرة من أولها ، كنت انتظر إلى أن أنتهي من عمل واجبي المدرسي فأذهب متأخراً متسللا من المنزل تاركاً إخواني الصغار نائمين ومغلقا الباب في حرص خشية أن تدخل الكلاب أو القطط ، وأسير في الظلام مستهديا بنور القمر أو بالأضواء المتسللة من بعض البيوت التي لم تنم بعد ، فلم أكن أخاف أو أشعر بالخوف ، ربما لأنني كنت طوال الطريق أفكر في شئ واحد هو لقاء العم شحاتة مستعرضاً كل الوجوه التي أتوقع حضورها ، فاطمة بوجهها الأسمر الباسم ، وصباح التي تدور حولنا كالنحلة ، ثم تأتى لتجلس بجواري ومن آن لآخر تتطلع في وجهي وتبتسم ، وأبى وقد قبع مكوما على نفسه في ركن القاعة يستمع دون تعليق لحكايات العم

شحاتة المتواصلة التي لا يقطعها سوى صوت رشفته التي تعلو وتخفق أحيانا حسب إيقاع الكلام ، وعندما أصل يلتفت الجميع نحوي بعد أن ألقى تحية المساء ، ويتوقف العم شحاتة للحظة عن الحكي ، في حين تبدأ فاطمة في صب الشاي لي ، الذي يكون دافئاً في الكنكة القريبة من النار ، فأشرب الشاي وأجدني بدأت في الكلام بتعليق أو بذكر حكاية عن المدرسة ، فأجد اهتماما بحكايتي ، فاستمر تساندني نظرات أمي المشجعة ، وابتسامة فاطمة العذبة ، أما هانم فكنا نسمع شخيرها من آن لآخر فنضحك ، ويردد العم شحاتة تعليقه الساخر :

– قومي نامي يا هنومة .

وعندما انتهى من حكايتي ، يكون هذا إيذانا بانتهاء السهرة ، وتكون هانم قد كفت عن شخيرها وبدأت في الانتباه هي والبنات إلى تعليمات وأوامر العم شحاتة ، في الفجر يعلق محمد أبو إمام الساقية في غيط العبيد ، وصباح تضع ماء للبقرة الصغيرة والبنات يناموا بدري علشان بكرة فيه شغل في الغيط و.. عند ذلك يتململ أبى الذي كان ساكنا طوال السهرة ، ويبدأ في القيام من مكانه الدافئ معلنا انتهاء السهرة :

– تصبحون على خير .

فتسحب أمي نفسها في صمت وراءه ، أما أنا فكنت أتمنى أن تطول السهرة أكثر من ذلك ، ولكنى أنسحب أيضا ونكون نحن آخر من يخرج .

-5-

وفى المنزل استعرض ما حدث طوال السهرة ، ثم أحاول النوم ولكن بلا جدوى ، وعند ذلك يلفت انتباهي صوت أمي وأبى في الغرفة المجاورة التي يفصلها عن غرفتي باب خشبي مغلق ، يمكنني مع سكون الليل أن أسمع أي همسات أو حركات خلفه ، بعد قليل أسمع صوت أبى ينادينى ، فاذهب ، أجلس على طرف السرير بجوار أبى الذي يكون في ذلك الوقت راكنا بجذعه على الوسادة وفى يده سيجارة مشتعلة حتى منتصفها بينما ترقد أمي بجوار الحائط ، وقد كشف الغطاء من أعلى عن جزء من قميصها الوردي الذي يبدو لي قاتما خلال الضوء القادم من مصباح مضاء في الصالة ، فانظر إلى عينها اللامعتين ، فأشعر بأنها راضية عن أبى ، على الرغم من كثرة سخطها عليه في أغلب الأوقات ، فيسعدني ذلك ، و يتواصل الحديث وأشعر بإعجاب أبى نحوي ، فأتحدث وأتحدث ، وعندما أرى أبى قد وضع رأسه على الوسادة وأسمع في الوقت نفسه شخير

أمي المتقطع أنسحب في هدوء وأنا أقول

ـ تصبحون علىٰ خير

فلا أكاد أسمع رداً فأقوم وأغلق الباب خلفي ثم أدلف إلى حجرتي من جديد ، وأبدأ رحلة النوم في رضى تام ، يحدث ذلك كل يوم اثنين تقريبا ، غير أن الذي كان يضايقني ، أنني عندما أقوم من نومي صباح الثلاثاء ، أجد لباسي الداخلي مبللاً بسائل لزج ولأنني كنت أصحو متأخر ذلك الصباح ، أضطر لتأجيل الغسل كي لا أتأخر عن المدرسة ، فارتدى ملابسي على عجل وأسير في الطريق، وأنا أعلم أنني لن أقابل العم شحاته هذا الصباح ولن أسمع تحيته المعتادة لي :

ـ صباح الخير يا أستاذ

-6-

وفى المدرسة ، لسبب أو لآخر كنت أهان في ذلك اليوم ، لذلك كنت أكره يوم الثلاثاء ، ولم أكن لأكره العم شحاتة أبو رشفة أبداً .

فرقة ضد فرقة

قلنا نلعب فرقة لفرقة . وكنا ستة صبيان ، قسمنا أنفسنا إلى فريقين : إسماعيل وإبراهيم وأنا في فريق وعلي وحسين وسيد في فريق ، اعترضت في البدء على هذه التقسيمة ، أنا لا أحب إسماعيل ولا أحب اللعب معه ، وإبراهيم يكبرني بثلاث سنوات ، كان يضربني في المقاومة اليدوية ويقول للخولي الواقف أمامنا أنني ورائي علامة فيضربني هو الآخر والشمس حارقة وعلامة واحدة تترك

الأرض دوداً ،الآن لم أعد أذهب ، كان فريقنا هو الأقوى ولذلك تراجعت ووافقت على اللعب وإن كنت أفضل أن أكون مع سيد . رمى إسماعيل بالقرش في الهواء ، صاح سيد : كتابة ، وقلنا نحن : ملك أخذ إسماعيل القرش من الهواء بين كفيه وجرى به نحو بقعة الضوء الهاربة من إحدى النوافذ ونحن وراؤه، ثم صاح : ملك . علينا إذن أن نذهب ونختفي بعيداً في الحقول أو في إحدى الخرابات المنتشرة في القرية ، وعلى فريق سيد أن يبقى في (الأمة) حتى نختبئ تماماً وعليه ألا يلحق بنا إلا عندما نصفر له ، أحمل في يدي صفارة صغيرة لكنها قوية ، يريد إبراهيم أن يأخذها ويصفر هو ولكنى رفضت بشدة . قال إسماعيل

بعد أن تركنا فريق سيد في الأمة وهو يغمز بعينه : نختبئ في منزل سيد .. أمة ليست هناك . وكنت أعرف أن أم سيد ليست هناك . إنها مع أمي في بيتنا ، وافقت من حيث المبدأ وأنا أشعر بانقباض في داخلي ولما مال إسماعيل على إبراهيم يهمس في أذنه وإبراهيم يضحك ضحكات متقطعة بدأت بوادر الاعتراض تدق في رأسي ، كنا نسير في حارة مظلمة وليست ثمة أضواء خارجة من النوافذ نصف المغلقة والأبواب المواربة قلت مثنياً عزمهماً :

– النور مقطوع والباب مغلق .

ضحك إسماعيل هذه المرة وجاوبه إبراهيم في الضحك ، ولما لم يلفظا بحرف صحت محتجاً :

– لن أذهب معكما .

خيم فوقنا صمت بليد ، وسرت في داخلي لذة انتصار ، يمكنني أن أفسد اللعبة وهل أستطيع ؟ إسماعيل أصغر منى سناً ولكنه أطول قامة ، لا أعرف كيف أصبح طويلاً هكذا ، لقد كان أقصر مني ... وإبراهيم أيضاً أطول منى يضربني لو أفسدت الدور ، ستقول أمي لأبيه .وسيقول سوف أضربه ولكنه لا يفعل . أما إسماعيل فأنا أغلبه وقد ضربته أول أمس وقال لي وكنا وحدنا : أنه معزة ، ولكنه يغظني ويقول :

– يا فشل؟تقدر تسبقني في الجري ؟

أطرقت إلى الأرض وقلت:

– لا.

– تقدر تطلع شجرة التوت السوداء الكبيرة ؟

قلت في خجل ممتزج بالغيظ :

– لا

فقال وهو يجرى ناحية بيتهم :

– يبقى أنت فشل .

انفجر الأولاد في الضحك ولم يجروا مثله ، وكان من بينهم إبراهيم ، قطع إسماعيل الصمت الذي طال ، وقال في رقة لم أعهدها منه :

– نحن سنختبئ فقط . وقف أنت تحت إذا أردت وصفر . لا تصفر إلا عندما نقول لك .

– موافق

– لن يعرفوا مكاننا

– سنكسب هذا الدور مثل كل مرة .

ثم واصلنا السير بجوار الحوائط المظلمة ، القمر على مقربة منا كشمس حمراء باردة ، والنور لا يزال مقطوعاً ، ولن يأتي الليلة أيضاً، اختبأنا ليلة أمس في حقل برسيم ، وكان سيد معي في نفس الفريق، أكلنا سريساً وخله ، وجمعت لأمي حزمة كبيرة من السريس، ساعتها ضحك الأولاد منى إلا سيد .... لكننا لم نفز في هذا الدور فقد أمسك بي إبراهيم وكاد يوقعني على الأرض .

وصلنا بيت سيد غرفتين صغيرتين من الطين ، غرفة تربى فيها أم سيد البط والدجاج وأخرى ينام فيها سيد وأم سيد وأبو سيد قبل أن يذهب إلى السجن ، أسفل المنزل جراح كان في الأصل مضيفة ، مغلق دائما لم أره مفتوحاً أبداً يقال أنه مسكون بالجن والعفاريت ،

يقول سيد أنه ليس فيه شئ من ذلك وأنه كان ينام فيه مع أبيه ، وهو ليس به غير عربة قديمة للبيه الكبير لا يستعملها ، وقال سيد أنه سيجعلنا ندخله عندما يأتي البيه للقرية .

قلت لهما :

– أصفر .

قالا معاً في نفس واحد :

– انتظر لما نختبئ .

ثم تسلقا الحائط المتهدم خلف الجراج وجلست أرقبهما وهما بصعدان إلى السطح ،بعد أن اختفيا بقليل سمعت دقات ارتجفا لها قلبي خوفاً ، يا ليتني صعدت معهما لكن سيد لا يكذب : لا يوجد بالجراج شئ ، تلفت حولي ليس إلا الصمت ناديت بأعلى صوتي عليهما لم يرد أحد . تسلقت الحائط المهدم بصعوبة كدت أسقط على الأرض وعندما صعدت إلى السطح كنت ألهث وكنت أخشى أن يراني إسماعيل وأنا أتعثر في الصعود فإذا بي أجدهما يقفان بجوار حلى نحاسية حمراء يتصاعد منها بخار خفيف ورائحة أعرفها جيداً تفوح في الغرف الصغيرة والهواء المنتشر على السطح يأكل إسماعيل بسرعة مذهلة وقد امتلئ فمه ويديه الاثنتين يسيل منهما السمن وقد اختلط بالعرق ، بينما إبراهيم قد انحنى نصفه الأعلى فوق الحلة

يواصل ملأ طاقيته الصوف بأصابع المحشي ، للمحشي — وخاصة الكرنب — رائحة نفاذة ولذيذة ! وأم سيد صديقة أمي — قطعاً — كانت ستحضر لنا منه ابتسم لي الولدان في خبث يدعوانني إلى المشاركة صحت وأنا أستعد للهرب :

– حرامية .

جريت إلى " الأمة" فريق سيد قاعد كما هو غير أن سيد ليس هناك بينما استقبلني حسين وعلى في برود مشترك .

– الدور باظ أنتم لم تصفروا .

– لكن أين سيد ؟

– ذهب وحده يبحث عنكم .

ثم تركاني وحيداً انتظر سيد ، لم يمر وقت طويل حتى رأيت سيد آتيا يجر ورائه ظلاً منكسراً تحت ضوء القمر المختنق، جريت نحوه ، ثم ارتميت في حضنه وبكيت، وعندما نظرت إلية لأخبره بما حدث وجدته يبكى أيضا .



قصص قصيرة جدا

1

بينما تشير بإصبعها نحوي

قال الأستاذ بعد أن قرأ قصتي – وكان الفرّاش قد شد على الطاولة الخشبية الكبيرة مفرشاً حريرياً ناعماً، ثم وضع في همة فائقة أكواب الشاي أمامنا ، وأمام الأستاذ وضع كأساً كبيرة من الكوكولا وأعاد ترتيب زهور بلاستيكية بيضاء وهو يثبتها على يمين الأستاذ :

- قصة جيدة .

أومأت برأسي ممتناً وابتسمت ، لم تكن أسناني نظيفة .

تحدث الأستاذ عن أشياء أخرى ، ابتسمت فتاة حسناء تجلس بجواري كان كوبها المليء بالشاي حتى حافته أكبر من كوبي " حسناء " كلمة غير دقيقة ، في الواقع كانت عيناها جمليتين ، وكان شعرها الأسود – بالفعل كان أسودًا – الناعم لا ينسدل على كتفيها نصف العاريتين ، وكان أحمر الشفاه فوق شفتيها الرقيقتين غير منفر ، أسنانها بيضاء ونظيفة . لم تقل لي اسم المعجون الذي تستخدمه .. أما ساقاها فكانتا، كانتا ماذا ؟ لا أعرف بالضبط ، على أية حال لم يكن الأستاذ ينظر إلى ساقيها لأنهما كانتا أسفل الطاولة ، ربما اكتفى بصدرها العاري والعاطل إلا من نهدين بدا أنهما على غير وفاق ، وبدا من بروزها غير الطبيعي أنها كانت تريد

ذلك .

مرة أخرى قال الأستاذ دون أن يبتسم لي :

- جيدة جداً.

أومأت برأسي من جديد ، وابتسمت من جديد ، لم أعد أبالي بأسناني غير النظيفة . قال الأستاذ أشياء أخرى مثل التركيب البنائى واللمسات الفنية بينما كانت جارتي الحسناء تبتسم .

في حركة عصبية أبعد الأستاذ الزهور البلاستيكية البيضاء بيده ، فتأهبت للخروج وأنا أبعد مقعدي في حذر ، وقفت . أريد أن أعرف إذا كان الأستاذ سينشر قصتي في العدد القادم من جريدته أم لا ؟ نظرت في استحياء إليه ، وقبل أن أتكلم بادرني كمن تذكر شيئاً منسياً :

- وقصتك أنت يا .. أيضاً جيدة .

تملكني ذهول كابوس أفقدني النطق ، أخذت أنقل نظرات حائرة شاردة بين الجالسين حول الطاولة أكنت استمد منهم العون ؟ ... ثم أفقت على صوت الحسناء الرقيق :

- هل أقرأ الآن قصتي ..

كنت أتراجع إلى الخلف متلمساً طريقي إلى الباب بينما تشير الحسناء بإصبعها نحوى .

2
لأنه تحسس جيبه

وضع الجرسون كوب الشاي وكوب الماء وترك الملعقة في الكوب الأول ولم ينحن ، ثم غادر الرجل النحيل والمنضدة .. قلب الرجل النحيل الشاي ورشف منه ، ثم أخذ ينظر في اللاشيء (ليس الأمر كذلك ، كان يفكر فيما إذا كان عليه أن يعطى للجرسون بقشيشاً أم لا ؟).

المقهى شبه خال والساعة لم تتجاوز الحادية عشر (لا بل كانت العاشرة والنصف تماماً) بعد لحظات عاد الجرسون ، انحنى هذه المرة ، ووضع قالبا من السكر في كوب الشاي أمام الرجل النحيل، دهش الرجل (لم يكن هناك ما يدعو للدهشة لأن نفس الشيء حدث مع الشاب الذي يقرأ في الجريدة .. وكان يرى الأمر

طبيعياً ، إذ أن الشاي كان بالفعل في حاجة إلى سكر) .

- الشاي مضبوط ولست في حاجة إلى سكر .

ود لو قال ذلك للجرسون ، غير أنه عدل عن ذلك لما رآه يبتسم (لم تكن ابتسامة) ترك قالب السكر دون أن يقلب الشاي .. انتهى منه سريعاً ولأنه لم يجد أثراً لقالب السكر في قاع الكوب، سأل نفسه :

هل وضع الجرسون سكراً حقاً أم كان يخدعني ؟ (كان يظن أن قالب السكر لن يذوب) فكر في الأمر طويلاً ، بيد أنه لم يعثر على إجابة شافية . وضع ثمن الشاي بالإضافة إلى البقشيش فوق المنضدة ثم خرج في تثاقل (يجب أن تذكر الحقيقة كاملة : كان يسير قلقا يلتفت وراءه ، يراقب النقود التي تركها فوق المنضدة .. ولم يهدأ باله إلا عندما جاء الجرسون وأخذ ثمن الشاي والبقشيش وكان ينحني هذه المرة أيضاً .. وهنا فقط سرت في داخله نشوة) . وبعد أن أضحت قدماه خارج المقهى فكر أن يعود مرة أخرى . إلا أنه عدل عن ذلك فجأة ؛ (لأنه تحسس جيبه) .

3

الوقوف في المنتصف

تقول المرأة ذات الصلعة والتي ترتدى باروكة شعر زرقاء اللون ، تقول تلك المرأة أنني أخوها السفلي ،أي أنني جنى ولست من جنس البشر وتسحبني من يدي فأسير خلفها في صمت ، ثم توقفني خلف باب نصف مغلق ،وتأمرني ،فأخلع ملابسي قطعة قطعة ،وأجدني مستسلما لا أستطيع المقاومة ، فأصير عاريا كما ولدتني أمي ،و أفكر للحظة هل ولدتني أمي عاريا حقا؟ وعند ذلك أصيح بكل قوتي،وأظن أن العالم كله يسمعني ،فتبتسم المرأة ذات الصلعة،وتلمس خدي القريب من يدها فأنتفض كمن مسته كهرباء وأشرع في ارتداء ملابسي قطعة قطعة ،وعندما أتجه إلى الباب أجده مغلقا،فأدور في الحجرة ، ثم أقف في المنتصف ،لا أستطيع الرجوع أو التقدم ،وعندما أصيح من جديد ينحبس الصوت في حلقي ،بينما تبدأ المرأة في خلع ملابسها قطعة قطعة .

4
الخوف

وأبى كاد يفقد عقله ، وأنا خائف ، خائف من الخوف ، والفقر والجنون ، والعالم كرابيج تلسع ، وأنت هناك بعيد ، ونحن هنا متأخر ون .. متأخر ون ، ولم تعد لي قدرة على البوح ، ويدي تؤلمني ، دائما أمسك القلم بطريقة خاطئة ، أظل أضغط على سن القلم حتى تكاد تخترق الورقة ، وتتفكك أصابع يدي اليمنى ، وأنا قلت ذلك من قبل ، وعرفت ذلك من قبل ، ولكنى لم أتغير ولم أغير طريقتي في إمساك القلم ، ويعز على أن أقول أنني لم أخلق للكتابة.

أسير في شوارع المدينة شامخ الرأس ، صموتا ، والصمت حالة طويلة ومشهودة .. وأحمل في جيبي سبع جنيهات ، وأقسم لأمي

بأغلظ الأيمان أن ليس معي مليم واحد، وأدخل مكتبة دار المعارف ، يقول اللص " حمص أخضر " قصة جيدة ثمنها خمسة وسبعون قرشاً ، وبين اللحم والقميص يضعها ويخرج بها ، ولكن كرشك سمين ، وأنت فوق ذلك متردد وجبان وهشام أشطر منك ، وأنت في الأصل لست لصاً ، ولكنك معزة ، وربما سرقوك أنت ، وأنظر إلى كومة كتبي بجوار الرجل المحصل كاتب الفواتير فأطمئن للحظة ، ثم أعود لكتاب "الراهب " للويس عوض طبعة قديمة ورخيصة ، وأنظر لكومة كتبي بطرف عيني من جديد، وأشك في الأمر ، وأجد مجلتي التراث الشعبي والراعي قد سرقتا ، فأقول يا ليتني ، وأعرف استحالة عودة الأشياء وأسير من جديد في شارع المكتبات ، ثم في شارع البوسطة ، وعند مكتبة السروي يقابلني سيد فتحي مهللاً وأدهش لم أكن أفكر فيه أبداً ، وأسير من جديد أتبع سيد فتحي هذه المرة نبحث له عن حذاء جديد ، من حارة إلى حارة وأقول هيا بنا نأكل ، وندخل المحل ، ويتقدم في مروءة من البائع ويحاسب ويرتب الأطباق وآكل واكتشف أن ليس بي رغبة في الأكل ، وأنني في الأصل لم أكن جوعان ولكنى لم آكل شيئا منذ الصباح ، ونشرب بارداً ، وأدفع أنا هذه المرة ، ويبقى شئ بعد الأكل ، يقترح سيد أن نعطيه لرجل كان يأكل بجوارنا ، فأقول : عيب ، لا يصح ، ثم

أقول : لماذا لا أخذه أنا واضعه في كيس ، وأنا سعيد بهذه الفكرة ، وتقابلني أمي ، وبعيداً عن أعين النساء ذوات البطون النهمة افتح اللفة وأقول لها خذي وأحكي لها وتطول الجلسة حيث تبدأ في سرد حكاياتها القديمة المكررة والجديدة المكررة أيضاً ، فأقطع عليها الطريق وأتساءل لماذا أنت حزينة يا أمي؟ وأنا أعرف جيداً سبب حزنها ، الحكاية بطلها أبى ، وأنا آسف ومحزون ومكدود ومكدور له ، وأحاول أن ألاطفه رغم ذلك ، بيد أنه على حافة الجنون ، وأخشى أن يقرأ هذه الكلمات ، وعلى أن أذهب غداً لأتم إجراءات استلام عملي ، وأنا مستسلم للأمور ، مدرس والسلام ، وأعرف أن الأرض جدباء ، والفقر يعم البلاد ، كل البلاد ، وقليل البخت سيلاقى العظم دائماً في الكرشة وأنا خائف ، ولكن من أي شئ ؟ لا أعرف ... ولو كان لي شيخ لأجابني ودلني وأرشدني ، وأنت خائف أكيد مثلى ، وحزين أيضا ، ومدرس مثلى ، ومثلى أنت ، ولكنك بجواري قوة ، وأنا بجوارك قوة ، ومعا نكون شيئاً ، لماذا لا تأتى ؟

5

صورة معلقة على الجدار

في الصباح عاد الرجل يتجول في المدينة متعجبا ، تملؤه الدهشة ،أخذ يقلب النظر في الناس والأشياء ، وإذا بثلاثة رجال ملثمين طوال ضخام الجثة ، يرتدون ملابس غريبة الشكل يمسكون به ويقبضون عليه ، وبعد دقائق وجد نفسه في المغفر ، وقد وجهت إليه تهمة بتر الذيل ، وعلى إثرها اقتادوه إلى غرفة مظلمة ، لم ير فيها أحدا ، ولكن كانت هناك صورة معلقة فوق الحائط في مقابل الباب الحديدي الضيق الذي كان يفتح مرتين في اليوم ، وعبر الضوء الداخل كان يرى شيئا من تفاصيل هذه الصورة، لقد كانت صورة لحمار ضخم ، وكان أبرز ما فيه هذا الذيل الطويل .

6 - لأجل أن يكون في يدك صنعة تنفعك

قال الصياد للخليفة :

- إني أشتهي أن أقول لك كلاما ولكن أستحي من هيبة الخليفة.

فقال الخليفة للصياد :

- قل ما عندك وأنت آمن .

قال الصياد :

- قد خطر ببالي يا أمير المؤمنين إنك أردت أن تتعلم الصيد ، لأجل أن يكون في يدك صنعة تنفعك ، فإن أردت ذلك يا أمير المؤمنين فهذه الجبة تنفعك .

أطرق الخليفة قليلا ، مفكرا في كلام الصياد ، وعندما رفع رأسه لم يجد أمامه أحداً ،وشك هل ما سمعه من الصياد حقيقة أم حلم؟! ، ولكن المؤكد أنه سمع بعد قليل صليل المفاتيح في يد الحارس خارج الغرفة .

المتفرجون

توشحت بالسواد من أخمص قدميها حتى شعر رأسها ،أخفت كل معالم الجمال في جسدها ،استغنت عن الأصباغ والألوان والكريمات ،محلية كانت أم مستوردة ،ولم تجد في ذلك عناء كبيراً، فكادت أن تنجح في خطتها ، إلا أنها لم تستطع أن تخفى أنها امرأة .

في الصباح توجهت إلي المنصة المنصوبة وسط الميدان الكبير الذي يتوسط البلدة ، كانت المنصة متوسطة الارتفاع فاستطاعت أن ترتقيها في سهولة . وقفت في البدء ساكنة ، ولما وجدت أن أحداً لا

يلتفت إليها ، أخذت تصيح تاركة يديها طليقة في الهواء ، من المؤكد أن أحداً لم يسمعها ، لأن صياحها كان قويا جداً ، لدرجة أنه يصيب كل من اقترب منه بالصمم ، ومن المؤكد أيضاً أنها تقول شيئاً ، كان فمها مفتوحاً على أقصى اتساعه ، ومع مرور الوقت سكنت يدها اليمنى من الإجهاد بينما اليسرى ممدودة في اتجاه المارة، فظنوا أنها تطلب صدقة لقد صار منظرها في السواد مثيرا للشفقة والخوف معاً .. تقاطر حولها المارة بين مشفق وخائف كل يرميها بما جادت به نفسه من أوراق مالية التى كانت في أغلبها كبيرة عريضة

أضحت الشمس في كبد السماء والمارة في الميدان يتزايدون والأوراق المالية تتكدس حول المرأة وفوقها ، مع مرور الوقت كادت المرأة أن تختفى ، بل اختفت بالفعل ، اختفت حاملة ما استطاعت حمله من الأموال وفى دقائق انتشر خبر المرأة الغريبة في البلدة كالأثير ، فتزاحم الناس حول المنصة وازداد الجمع الواقف حولها أضعافاً مضاعفة ، أثناء ذلك كانت المرأة ترقد خلف المنصة تراقب هذا الجمع الكبير ، ألقت نظرة خاطفة دون أن يلحظها أحد لتتأكد من وجود الجمهور ، ثم بدأت تخلع وشاحها الأسود وكل ما يخفى معالم جسدها ، كانت ترتدى قميصاً رقيقاً يبرز مفاتنها أكثر ما

يخفيها تاركة شعرها الأسود اللامع ينسدل على كتفيها العاريين كأنها خارجة لتوها من حمام ساخن ، أما عينها فكان يشع منهما بريق حاد ، بريق الشهوة العارمة لابتلاع كل الرغبات المجنونة — كانت همهمة الجماهير ومناقشتهم قد بدأت تتحول إلى ضجيج وصياح — أكملت المرأة زينتها ، واعتلت المنصة من جديد في رشاقة غزال ، وأسرعت ترقص بمصاحبة ضجيج الجماهير وهتافهم الذي أخذ يعلو ويعلو كلما استمرت المرأة في الرقص .

كادت المرأة أن تسقط من الإعياء بينما هتاف الجماهير يتحول إلى جنون ، اختفت المرأة من جديد من فوق المنصة دون أن يشعر بها معظم الجماهير . قلة صغيرة فقط لم يسكرها رقص المرأة أو فتنتها ، استطاعت أن ترى المرأة وهى تختفي ، فاعتلت المنصة وحاولت أن تفهم الجماهير كيف اختفت المرأة ؟ وأين ترقد ؟ إلا أن الجماهير استنكرت ذلك بل استنكرت مجرد وجودهم فوق المنصة ، فأخذت تصيح :

— نريد المرأة ... نريد المرأة !

لم تيأس هذه القلة الصغيرة ، وحاولت وحاولت ، لكنها في النهاية فشلت فتحول منطقهم إلى صياح ، ثم تحول صياحهم إلى رقص عنيف ازداد عنفاً مع ارتفاع هتاف الجماهير .

شعرة ملح

صرخ الطفل الصغير باكيا ، كان يبكي بمرارة، مرارة المقهورين ، قلت له لماذا تبكى يا بنى ؟ وقالت أمي مثلما قلت ، وكان اللبن قد جف في ثدييها ، وكان الدمع قد جف في عينيها ، وكان أبى خارج المنزل ، ولم تكن في الخارج أمطار تسقط .

عندما عاد أبى وكان الطفل لا يزال يبكي ، قال له : لا تبك يا ولدى .. ثم توسد يده ونام .

قلت له :

– ستمر الأزمة يا بنى وما من شدة إلا سيأتي لها من بعد شدتها رخاء قال أبو تمام ، ثم ذكرت له المتنبي وأبا العلاء المعرى وعبده الحامولي ، وحدثته عن شكسبير وجيته وعدوية ، ولكنه ظل يبكي !

ولا يزال الطفل يبكى ..

جاءت جارتنا العجوز ومالت على أمي وكنت بجوارها .. ثم قالت :

– شعرة ملح ؟

وكنت أعرف مكان الملح ، وكانت أمي تعرف أنى أعرف ..لم تنظر لي أمي .. ولم ترمقني كما توقعت وأشارت للعجوز على جارة أخرى

ولا يزال الطفل يبكي ..

جلس أبى – تجمعنا الغرفة الوحيدة – في الركن الأول ، كان الطفل يبكى ، وفى الركن الثاني كانت أمي ترقد .. وكانت أنباء عن الحرب نصف الكاذبة تنطلق من المذياع في الركن الثالث ، ومع ذلك كانت تثير فينا عاطفة القوة وتحفزنا على السير بل القفز كي نقتل هذا العدو ونتخلص منه " آن أن نخلص منه" قلنا وفى

نفس واحد فيما عدا الطفل ! وعندما انتهى المذيع من قراءة البيان الحربي ، بدأت راقصة معروفة تغنى أغنية وطنية حماسية .

استنكر أبى ذلك منها ثم قال : الغناء لأهل الغناء .. والرقص لأهل الرقص يا .. ثم أطلق ضحكة صاخبة قابلتها أمي بتنهيدة طويلة ، أغلق أبى على إثرها المذياع .

تحولت أجسامنا وأبصارنا مباشرة إلى التلفزيون الذي كان مفتوحا أيضا .. كانت الراقصة المعروفة — نفسها — ترقص رقصتها المشهورة .. تهز نهديها في عنف وأردافها في حرارة ، لقد كانت تبذل جهدا خرافيا مما جعل الطفل يتوقف للحظة عن البكاء ، وإن كان أحد لم يلحظ ذلك !

كان الطفل لا يزال يبكى ..

وكانت الراقصة لا تزال ترقص عندما عادت جارتنا العجوز مرة أخرى ومالت على أبى هذه المرة .. قالت كلاما في أذنه كنا نسمعه لكننا لم نفهمه .. عندما انتهت قام أبى أطفأ التلفزيون وبصق في وجه أمي ثم خرج مع العجوز ، هنا فقط أجهشت أمي بالبكاء ، بدأ أنينا متقطعا ثم أخذ يعلو ويعلو بينما كان بكاء الطفل يخفت رويدا .. رويدا .

حكاية رجل بلا ذيل

عندما صحا من نومه في ذلك الصباح الجميل المشرق لم يجلس في الحديقة كعادته كل صباح ، ولأول مرة جرؤ على اختراق قانون حاكم المدينة الملزم له بعدم مغادرة البيت والذي دأب على تنفيذه في رضى وقبول تامين لمدة خمسة عشرة عاماً، بل كان يشعر في أكثر الأحيان أن ذلك ما كان يتوق إليه ، ويسعى لتحقيقه ، خطر له أن يزور المدرسة التي كان يعمل بها ، وجاهد في أن يتذكر اسم المادة التي كان يدرسها : حب ؟ حرية ؟ سلام ؟ عدالة ؟ خبز ؟ موسيقى ؟ قلق ؟ وأنى لذاكرته أن تسعفه ومع ذلك مضى في طريقه، بدا له أنه يعرف الطريق جيداً ولم يعترضه أحد من رجال الحاكم ، من طول ما غير الزمان شكله وهيئته ، وكان الشارع خال من المارة ، فسار نشوان بهذا الهدوء المخيم على المدينة ، أهي الحرية ؟ الانطلاق بعد القيد ؟ غض نظره عما لقيه من عثرات الطريق ، لم يضايقه غير تلك الروائح التي كانت تنبعث من جنباته ، كانت هذه الروائح تحاصره بقوة ، كاد يختنق غير أنه سرعان ما بدأ يشم رائحة مختلفة ، كانت في البدء غامضة مختلطة بتلك الروائح

الكريهة ، وقد تكشفت له الآن رائحة جميلة ساحرة ، امرأة قادمة ، إذن تلك الرائحة صادرة عنها ، اقتربت منه ، يا الله ! آية من الجمال ،لوحة تشكيلية بديعية ، خليط من السحر والخيال والموسيقى والشعر ، قوام رشيق ، ووجه شفاف تذوب فيه هذه المساحيق الخفيفة فيزداد سحراً وجمالاً ، حياها بابتسامة ، ردت علية الابتسامة في ثقة وامتنان وتجاوزته وكانت الابتسامة حافزاً لكي يلقى نظرة أخرى ،التفت إلى الوراء يتابعها ، لدهشته لم يصدق عينيه في البدء ، فعاد وأخذ يحدق من جديد ، ثم غير طريقه وأخذ يسير خلفها . من الخلف يتدلى ذيل ، بالضبط أسفل منطقة الظهر ، ذيل حقيقي ! تابع السير ،لا يزال مندهشاً تضع الذيل في جراب من نفس قماش الجيب القصير الذي ترتديه وفى نهايته تزينه بشريط حريري أنيق .

عند ذلك الوقت كانت الحياة قد دبت في المدينة وبدأت الشمس تتزحزح قليلاً من الركن الشرقي كما بدت أكثر حرارة وتوهجاً ، الناس يسعون إلى أعمالهم ، وقد خلعوا عن عيونهم آثار النوم ، وأصحاب الحوانيت يعرضون بضائعهم داخل الفترينات الزجاجية وأمام المحلات مثل كل صباح ،لكن هناك شئ عجيب يحدث في الطريق، هذا الرجل الذي يتابع تلك المرأة في الطريق

العام ، ليس هذا هو مصدر العجب ، يريد منها موعداً غرامياً له ما يشاء ، وهو حر ، لكن أن يكون بلا ذيل ! كان هذا هو مثار الدهشة والعجب معاً لأهل المدينة ، طبقاً لقوانين المدينة الصارمة لا يحق لأحد أن يسأله : لماذا هو بلا ذيل ؟ ثم أن الأمر سيكون محرجاً إذا كان له ذيل ويخفيه مثل بعض الشباب المخنث في البلاد هذه الأيام، إذ يخفونه بربطه خلف الظهر أو بقص بعضه وارتداء السراويل الواسعة فوقه . أما هو فكان لا يزال مندهشاً يتابع المرأة ، دخلت مبنى ضخماً ، يبدو أنه مصرفاً ، وربما كان مبنى جديداً لحاكم المدينة ، فعاد خائباً وبدأ يصطدم برجال ونساء وأطفال على نفس شاكلة المرأة، تملكه شعور بالحيرة والدهشة ، واكتشف أنه غير قادر على الكلام ، وبدأ يجتر ذكرياته في حديقة المنزل الجميل ، وخطر له أن يعود مرة أخرى إلى المنزل ، لكنه شعر أنه تائه وسط المدينة ، حتى أنه نسى خاطر العودة فأخذ يقطع الطريق بلا هدى، خطوات للأمام وأخرى إلى الخلف ، يسير هنا وهناك ، وفى النهاية يجد نفسه في نفس المكان الذي بدأ منه ، وحاول أن يتذكر الطريق ، غير أنه تأكد من صعوبة الوصول إلى المنزل ؛ لقد نسى مكان المنزل والحديقة ، ثم بدأ يشك فيما إذا كان للبيت حديقة ؛ أو إذا كان للحديقة بيت ؟ ثم أخيراً أنكر أن يكون له حديقة أو بيت ، كانت

المدينة بصخبها مثل خلية النحل ، والشمس فوق الرؤوس متعامدة، مما زاد من إحساسه بالضياع في هذه المدينة ، بل في العالم، أفاق علي سهام العيون تحاصره من كل جانب ، ما من رجل أو امرأة أو طفل إلا ويرميه بنظرة صامتة ، ولكنها نافذة ثاقبة ، ثم يسير كأن شيئاً لم يكن ، قليلون هم الذين يحدقون فيه بتأن ، فخيل إليه أنهم رجال الحاكم ، لكنه لم يعد يتذكر جيداً ، وبدأ يضيق بشدة ، يلوح بيديه ، يكاد يصيح فيهم ، بل صاح بالفعل ، غير أن صوته لم يتجاوز حلقه ، أحدهم كان يحمل كاميرا، التقط له عدة صور .

في المساء كانت صورته تتصدر الصفحات الأولى للجرائد ، جرائد الصباح ، حيث تصدر في مساء اليوم السابق كالعادة ، وتحت الصورة كتب، بخط واضح (أعجوبة العصر ... الرجل بلا ذيل) ولما كانت الجرائد لا تباع في المدينة ، فيمكنك أن تجدها في أي مكان بلا مقابل ، التقط واحدة ، لم ينكر صورته ،بيد أنه لما شاهد صورة حاكم المدينة ، خيل إليه أنه كان فاقداً الذاكرة وقد عادت إليه الآن، فشعر بالبهجة تملأ نفسه ،وللحظة بدا أنه اكتشف كنه هذا العالم ، فتذكر اسم المدرسة والمادة التي كان يدرسها والتلاميذ الصغار الأشقياء والطيبين على السواء ، والأهم من ذلك تذكر موقع منزله وحديقته ، فسار في شوارع المدينة ، يكاد يرقص من الفرح ،تتصدر

وجهه بسمة كبيرة ، يحمل تحت إبطه الأيمن جريدة المدينة الرسمية ، تغمر وَجهه ولحيته أضواء المدينة الصاخبة ، متخذاً طريقه الذي يعرفه جيداً — إلى منزله ليستريح من عناء ذلك النهار الطويل ، وعازماً أن يعود في الصباح ليتجول في المدينة رغم أنف الحاكم .

في صباح اليوم التالي عاد الرجل ليتجول في شوارع المدينة بلا خوف ، يقلب النظر في الأشياء وفى الناس وعلى فمه ابتسامة عريضة هادئة ، وتدريجياً بدأ يألف ظاهرة الذيول في المدينة بل بدا يقتنع تدريجياً أن الظاهرة طبيعية ، لكنه لم يمر وقت طويل على ذلك ، وإذا بثلاثة رجال طوال عراض يرتدون الملابس الرسمية الثقيلة يمسكون به ويقتادونه إلي المغفر.

وهناك طلب منه الرجل الجالس خلف مكتب عريض ، ويرتدى نظارة سوداء قاتمة أن يخلع ملابسه كلها أمامه ، تردد قليلاً ريثما يلتقط أنفاسه ، فإذا برجلين من الثلاثة الذين اقتادوه إلى هناك يبطحونه أرضاً ويتركونه كما ولدته أمه ، فقام الرجل ذو النظارات من خلف المكتب وتفحصه جيداً ، ثم عاد ليجلس موجهاً إليه تهمة بتر الذيل ، وإن تلك بدعة يعاقب عليها القانون في شريعة المدينة المقدسة ، فحبسوه ومنعوا عنه الطعام والشراب لمدة ، فنفق ومات .

حكاية الشاعر المنكود وزوجته النكداء

قالت لي جدتي : عليك أن تحتفظ بالطاقية والعصا .. فهما اللتان بقيتا لي فقط . أما الحصان فقد باعه أبوك يوم أن عرس بأمك وبعد ذلك لم أعد أطلب من جدتي أن تقص عليّ الحكاية لأنني كنت أعيشها في كل لحظة ، وكنت صغيرا ، لم أكن قد ابتليت بالنكداء .. ومن هنا بدأت الحكاية .

• الطاقيــــة :

أتساءل في البدء : هل يستطيع الإنسان أن يعيش في هذه الدنيا بدون طاقية ؟ الإجابة عن هذا السؤال هي نقطة الخلاف بيني وبين زوجتي النكداء وعندما أقول النكداء فأنا لا أقدح فيها ، فهي بالفعل نكداء ، والمنكود بالطبع هو أنا ، تجعل من ليلى نهاراً ومن

نهاري ليلاً ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ما علينا ، المهم أن النكداء ترى دمى ثقيلا وأنا مرتد هذه الطاقية ، لا تخرج معي إلا إذا خلعتها ، ولا تنام معي في حجرة واحدة إلا إذا خلعتها ، وليت الأمر يتوقف عند هذا ، وإلا ما كان هناك مشكلة بالمرة ، إنها باختصار تريد حرق الطاقية ، يا للغباء ! وأنا شاعر هل هناك شاعر بلا طاقية ؟ حقا ناقصات عقل ودين عبثا أحاول أن أفهمها قيمة الطاقية وفوائدها العظيمة ، لكن ما في الرأس في الرأس أقول لها : لولا هذه الطاقية ما كان استطاع الصبي أن يدخل الغابة ويصل إلى الشجرة ويقطف الليمونات الثلاثة .. فلا تصدق . أحلف لها بكل المقدسات ولا تصدق . تقول البلهاء أنى ملحوس العقل ، وأن مكاني بين المجانين في مستشفى العباسية . ماذا أفعل بدون الطاقية التي تقي أذني من البرد ؟ لن أستطيع الذهاب مبكرا إلى الفرن لكي أجلب لها الخبز قبل الزحمة .

• العصـــا :

" العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة " وهذه النكداء بعد أن أخفت الطاقية ليس لها غير قرع العصا . لو لم يبع أبى الحصان ، لكنت قرعت رأسها فتنفلق نصفين وعند ذلك ألبس الطاقية وأركب الحصان وآخذ العصا وأفر بعيدا عن هذه النكداء ، لكن كيف يكون

ذلك وأبى باع الحصان وهى أخفت الطاقية والآن تريد أن تكسر العصا . لم يبق غير العصا لم يكفها كل الذي فعلته البلهاء تظنني سأسكت لها ، لا ، في هذه الحالة أخنقها بيدي هاتين ، سوف أخنقها النكداء العاقر ، ألا تستحي ؟!

* *المــــاء :*

أعطني يا سيدي جرعة ماء . لا أسألك أن تعطني خبزا ، فقط جرعة ماء ، لي في مدينتكم هذه يومان ولم أذق طعم الماء .. اسمع هذه الحكاية : يحكى أنه في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، كان رجل شاعر يضرب على قيثارته فيشجى السوقة والملوك بكلام مؤثر وحكايات عجيبة واتفق أنه ذات يوم سمعته زوجة الملك فأمرته أن يكف عن الغناء وكانت امرأة شريرة ، يخشى بأسها ، تضرب بالسيف وتلعب بالرمح وتكيد للرجال ، فامتثل الشاعر المسكين للأمر وكان الملك غائبا في هذه الأيام ، فاخذ يبكى وهو يقول لنفسه لو كان الملك هنا ، وبينما هو على تلك الحالة يفكر في الأمر ويتدبر انشقت الأرض وطلعت منها صبية مليحة بوجه مثل البدر ، فاندهش لطلعتها وأعجب بجمالها ، فوقعت محبتها في قلبه على الفور ، وقال لها : أنجديني يا سيدتي .. وقد عرف أنها جنية من بنات الجن ، وأخذ يحكى لها ما حدث له من البداية إلي النهاية فقالت

له وهى تبتسم : أنا ما جئت يا نور العين إلا لهذا ! ففرح المسكين وهوى على قدميها ليقبلها ، فإذا بها تصرخ صرخة مدوية شالته من فوق الأرض وهى تقول : لا تلمسني ، فصعق المسكين وقال بقلب باك وفم شاك ، لماذا يا سيدتي ، فقالت وهى تلهث : لا تسأل فيما لا يعنيك ، ولكن خذ هذه الطاقية وتلك العصا .. وأمام الباب ستجد فرسا مربوطا .. حله واركبه ثم البس الطاقية وخذ معك العصا واعلم أنك إذا لبست الطاقية فلن يراك أحد .. أما العصا فما عليك إلا أن تطرق بها أي باب فيفتح لك على الفور، وركب الرجل وهو يكاد يطير من الفرح ، وبعد دقائق وصل ، لكن المسكين وجد القصر خاليا لا يوجد به صريخ ابن يومين ، فعاد أدراجه مكسور الجناح وراعه أن المدينة هادئة وخالية ، فعلم أن أهلها هجروها ، فأوقف الفرس وأخذ يبكى ثم أحس بالعطش الشديد.. هل مللت يا سيدي ؟.. لا تعجبك ! تقول عندك مثلها ، اعطني جرعة ماء وأنا أقول لك حكاية أفضل منا ألف مرة .. لا تريد ؟ إنها حكاية جديدة ، لم أحكها لأحد من قبل .. حكاية حقيقية ، أقسم إنها حكاية حقيقية .. ماذا تقول ؟ سأحكيها لك من الآخر . اسمع : لقد خنقت زوجتي النكداء بيدي هاتين .. لا تصدق .. أنت حر .. اعطني الماء .

سيرة ذاتية موجزة

- الاسم كاملا : محمد عبد الحليم محمد غنيم
- اسم الشهرة : محمد عبد الحليم غنيم
- تاريخ الميلاد ومحله: ١٩٦٢/١٠/٧ بلبيس /شرقية
- المؤهلات الدراسية وتاريخها :
- ليسانس آداب –قسم اللغة العربية /مايو ١٩٨٥م/جامعة الزقازيق
- ماجستير في الآداب /مايو ١٩٩١ /جامعة الزقازيق
- دكتوراه في الآداب – تخصص أدب حديث / جامعة المنصورة ٢٠٠١
- المؤلفات :
- لن أقلع عن هذه العادة (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢م
- شعراء حول الرسول (ص) دراسة أدبية ٢٠٠٣م
- دراسات منشورة في كتب مشتركة:
- شعرية السرد الروائي "دراسة في روايات صلاح والى " بحوث مؤتمر الشرقية الأدبي ٢٠٠٢
- عبد الله مهدى وأنموذج القصة القصيرة جدا
- غنائية القصة القصيرة–قراءة في مجموعة أحلام البنت الحلوة للدكتور حسين على محمد_ بحوث مؤتمر ديرب نجم ٢٠٠٢

- شعرية البداية فى روايات بهاء طاهر ، كتاب الأبحاث –مؤتمر أدباء مصر التاسع عشر ٢٠٠٤ (الهيئة العامة لقصور الثقافة) ، القاهرة ، ٢٠٠٤ .
- كتب منشورة على شبكة الإنترنت :
- البلاغة النبوية(دراسة تطبيقية) ،دار ناشرى ٢٠٠٤
- الفن القصصى عند فاروق خورشيد، دار ناشرى ٢٠٠٤
- وقيد النشر :
- التاريخ والقص (دراسة في أدب سعد مكاوي) ، المجلس الأعلى للثقافة .
- الفن القصصي عند فاروق خورشيد (الهيئة العامة لقصور الثقافة– سلسلة كتابات نقدية)
- شعرية السرد الروائى،المجلس الأعلى للثقافة(الكتاب الأول)،مصر
- مخطوطات :
- ابن أنيسة (رواية قصيرة)
- قراءات في الأدب العماني الحديث
- دراسات وبحوث وقراءات نقدية لم تجمع في كتاب بعد

- تليفون ٠٥٥/٢٥٦٦١٨٦
- تليفون جوال ٠١٢٧٠٢٩١٤٤

بريد إلكتروني
mohamedghoneem104@hotmail.com

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب
١٣٣٨٥ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-374-096-X